ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ
وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم
بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ (القرآن الحكيم)

الدّاعي

مجلة عربية إسلامية شهرية
تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

العـــــدد : ١١ ، السنـــــة : ٤٩

ذوالقعدة ١٤٤٦هـ ، مايــو ٢٠٢٥م

تحت إشراف

فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني
رئيس الجامعة

رئيس التحرير

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري
الأستاذ بالجامعة

الاشتراكات

- ثمن النسخة: ٦٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٦٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

عنوان المجلة على الانترنت
Web : https://darululoom-deoband.com/arabicmagazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني
E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس التحرير مجلة الداعي
دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)
الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor
AL – DAIE
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس
Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

المحتويات

كلمة المحرر

♦ أعجب رحلة في الحياة	التحرير	٣

كلمة العدد

♦ من سنة الله تعالى الابتلاء والاختبار	محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري	٤

الفكر الإسلامي

♦ من ظلال التفسير	العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي رحمه الله	٩

دراسات إسلامية

♦ أدبُ الدرس وأدبُ النفس	الأستاذ عبد الله عبد الغني خياط	١٥
♦ من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند	الأستاذ سيد محبوب الرضوي الديوبندي رحمه الله	١٩
♦ هو الذي خلقكم من نفس واحدة	الأستاذ يوسف مصطفى الأمير	٣٢
♦ أثر الشمس في الكون	الأستاذ أحمد الشرباصي	٣٥
♦ الشيخ العلامة قمر الدين الكوركفوري رحمه الله	الأستاذ محمد أجمل القاسمي	٣٨
♦ العرف الذكي شرح جامع الترمذي	تعريف وعرض: الأستاذ محمد ساجد القاسمي	٤٣

إشراقة

♦ آمن القلب، ولما يؤمن العقل	أبو عائض القاسمي المباركفوري	٥٦

كلمة المحرر

أعجب رحلة في الحياة

يؤم المسلمون في هذا الشهر وقبله مكة المكرمة ليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق. وهذه الرحلة من أعجب الرحلات البشرية، رحلة إلى مكان لايزال صاحبها فيه مدةً من الزمان يعيش أجواءه، وإن طال عهده بالعودة إلى بلده. ولاتزال صوره ومعالمه حاضرةً في عقله وماثلةً في عينه في يقظته يحدث بها من جاءه يزوره ويهنئه على هذه الرحلة المباركة، ويراها في منامه حين يغط في نومه. يرى أنه يطوف بالكعبة تلك البنية السوداء، يبدأ الطواف بهذا البيت وبه يختتم، ويقبل الحجر الأسود لا لمنفعة يرجوها منه أو مضرة يخشاها؛ بل امتثالًا لأمر الله تعالى، واقتفاءً برسل الله تعالى، وتعظيمًا لما أمر بتعظيمه، واستيناسًا بالدنو إلى كل ما يُعزى إلى الله تعالى:

أمر على الديار ديارِ ليلى ..... أقبِّل ذا الجدار وذا الجدارا

فتعود أصنام الصوت والصيت، وأصنام السمعة والشوكة، وأصنام العلم، وأصنام العرق واللون واللسان تعود جذاذًا. فلافرق بين وضيع وشريف، وسيد ومسود، وضعيف وقوي، وحاكم وسوقة، ومالك ومملوك، وأبيض وأسود وأحمر؛ كلهم أمام الله تعالى سواء كأسنان المشط. وحينئذ يدرك أنه لافضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وأن أتقاهم أكرمهم عند الله تعالى، وأن المال والبترول والدولار لايرفع من وضيع، ولايحط من قدر كريم على الله تعالى.

وحينًا يتجلى على شريط مخيلته انعكاسات السعي بين الصفا والمروة، وهو يذكر الله تعالى ويدعوه هائمًا ماشيًا على قدميه أو يركض هرولةً بين الميلين الأخضرين، فيعود به الذكريات إلى قرون طويلة في الماضي، يتذكر جذور هذه الأمة وأصالتها، يتذكر تلك التجربة الكبرى التي خاضتها، والعمل الشاق الذي قامت به تلك المرأة المؤمنة بالله تعالى القانتة العابدة الطائعة الصابرة المثابرة، طلبًا للماء لرضيعها حين فقدت ما تبل به غلته في وادٍ غير ذي زرعٍ تركها و طفلها فيه زوجها الأواه الأواب خضوعًا لأمر الله تعالى وثقةً بقدرته وطلبًا لرضاه.

وحينًا يقف أمام القبة الخضراء، أمام السلاسل الذهبية التي تحول بينه وبين قبر النبي الأطهر ﷺ، يصلي عليه وعلى صاحبيه، ويقف في «رياض الجنة» فتذرف عيناه الدموع، ويقف فيه مقامًا ينسى فيه الدنيا وما فيها، ويذهل عما ترك وراءه من مال وبنين، وما خلفه من صحارى و رمال وفيا في وفلوات، وما قطعه من مسافات ومتاهات برًا أو بحرًا أو جوًا من بلده إلى بلد حبيبه المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومن أعاجيب هذه الرحلة المباركة أن المرء يطوف في البلاد، ويضرب في الأرض شرقها وغربها وشمالها وجنوبها، ويشد الرحال إلى روضة من رياض الحسن والجمال، أو جنة من جنان الفتون، لسياحة أو تجارة أو دراسة، فلا تعلق به صفة من صفات هذه الرحلة ولاتلازمه طوال حياته ومدى عمره إلا رحلة الحج، فإنه لايجد مفخرةً أعظم، ولا وصفًا أحب إليه من أن يدعوه الناس بـ(الحاج). وليس في العالم مسلم- يستطيع إلى الحج سبيلًا أو لايستطيع- وهو لايتمنى أن يحج بيت الله تعالى، فلايُذكر له رحلة أحد أو عودته منه، إلا وهو يراوده – عن وعي أو غير وعي- هذه الأمنية في أعماقه وقرارة نفسه. ويهفو إليه أكثر مما يهفو إلى حبيبه قلب العاشق الهيمان، لو اجتمع الأدباء والشعراء من كل لسان لما استطاعوا وصفه. [التحرير]

(تحريرًا في الساعة العاشرة صباحًا من يوم الأربعاء: ٢١/رجب ١٤٤٦=٢٢/يناير ٢٠٢٥م)

من سنة الله تعالى الابتلاء والاختبار

من سنة الله تعالى في الكون اختبار عباده وابتلاؤهم، فالكون كله محل الابتلاء ومكانه، ولايعني اختبار الله تعالى عباده أنه -والعياذ بالله- لايعلم خيرهم من شرهم، وصالحهم من فاسدهم، ومصلحهم من مفسدهم، وقويهم من ضعيفهم؛ فإن الله تعالى علمه أزلي أبدي، قدر كل شيء في الأزل فهو على علم تام بما سيقع إلى قيام الساعة، وإنما يهدف هذا الابتلاء إلى كشف ما أودعه الله تعالى العبد من الملكات والجواهر، والخصائص والميزات. فمثلًا أودع الله تعالى عبدًا من عباده قوة القلب و رباطة الجأش، فالابتلاء بالمصائب والنوائب يكشف عن هذه القوة القلبية المودعة في نفسه، وقس عليه ضعيف القلب حيث يتجلى ضعفه حين يتعرض للخطوب والبلايا. فالغرض من ابتلاء الله تعالى عباده هو هذا الكشف والإبراز لذلك لا الاستعلام والتعرف على ما فيه من ملكات وجواهر وخصائص وميزات؛ فإن الله تعالى هو خلق الخلق فهو أعلم به من غيره ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

ومن سنة الله تعالى أنه نوَّع الابتلاء والاختبار فابتلاء بالخير وابتلاء بالشر، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٥]

أي: «نختبركم بما يجب فيه الصبر من البلايا، وبما يجب فيه الشكر من النعم، وإلينا مرجعكم فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر، وإنما سمي ذلك ابتلاءً وهو عالم بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم؛ لأنه في صورة الاختبار».

يقول الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي رحمه الله – في تفسير الآية: «المراد بالخير العز والراحة والصحة والعافية وأنواع النعيم ورغد العيش، والمراد بالشر الشدة والمرض والإفلاس. فتعريض العباد للشر والخير يهدف إلى اختبار شكرهم وصبرهم».

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ

فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر:١٥-١٦].

يقول الشيخ محمد شفيع رحمه الله – في تفسير هذه الآية: «الأصل أن المراد بالإنسان هنا هو الكافر، الذي يظن بالله تعالى ما يشاء، ولكن هذا الخطاب – نظرًا لعموم معناه- يشمل المؤمن الذي يظن مثل هذا الظن. وهذا الظن هو أن الله تعالى إذا وسع على أحد في رزقه ومنحه الصحة والعافية، فإن الشيطان يوقعه في اثنين من الظن الباطل. الأول: أنه يظن أن ما ناله ناله عن قدرة وكفاءة وعقل وفهم وسعي وكد من عند نفسه، وكان من حقه أن يناله. والثاني: يعتبر نيل هذه الأشياء سببًا لقبوله عند الله، فإنه لو كان مرذولًا عنده سبحانه لحرمه هذه النعم. وكذلك إذا ضاق الرزق على العبد اعتبره دليلًا على أنه مطرود من عند الله تعالى، ويثير ذلك حفيظته، ويقول: مالي أصاب بالذل والهوان وكنت أستحق التقدير والإنعام. وهذه الظنون يظنها الكفار والمشركون، وقد أشار القرآن الكريم في غير موضع إلى مثل هذه الظنون الكافرة. و ياللأسف قد وقع كثير من المسلمين اليوم في حضيض هذه الظنون، فذكر الله تعالى في هذه الآيات أمثال هؤلاء العباد، ثم رد عليهم فقال: (كلا) أي ظنكم هذا باطل لاأساس له من الصحة، فليست السعة في الرزق في الدنيا دليلًا على القبول عند الله تعالى، ولا ضيق العيش والفقر والعوز من آيات الطرد والإذلال من الله تعالى؛ بل العكس صحيح في كثير من الأحوال، فهذا فرعون- الذي كان يقول: أنا ربكم الأعلى- لم يُصَب بصداع في رأسه قط، وهؤلاء الأنبياء عليهم السلام شُق بعضهم بالمنشار شقين. وقد روى ابن ماجه في السنن (برقم:٤١٢٤) وغيره عن عبد الله بن عمر، قال: اشتكى فقراء المهاجرين إلى رسول الله -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- ما فضل الله به عليهم أغنياءهم، فقال: «يا معشر الفقراء، ألا أبشركم، إن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم، خمس مئة عام» ثم تلا موسى هذه الآية: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف:١٦٨] أي بالشدة والرخاء و الرهبة والرغبة والمصيبة والعافية.

فيبتلي الله تعالى عبده ليتبين هل يذكر منعمه أو يعكف على النعمة ويغفل عن المنعم تبارك وتعالى. فإن ألهاه رغد العيش والترف والنعيم عن المنعم تعالى، ولم يتذكر من امتن بها عليه، تبين أن قلبه

يكـنُّ كفـران النعمــة، وجحـود الـصنيع. ولايعنـي شكر النعمة مجرد الانتفاع بها؛ بل يجب أن يجمع إلى الانتفـاع بهـا الإقبـال إلى منعمهـا والخـضوع لدينـه وتشريعاته، والشكر على هذه النعمة.

والإنسان يبتلى على نوعين بعد أن ينال النعمة. الأول: أن ينتفـع بهـذه النعمـة بـالمعروف، والثـاني أن يشكر لصاحب النعمة على هذه النعمة، ويقبل إليه بقلبه وقالبه، فإن الذي يقدر على العطاء والمنح يقدر على الاسترداد والحرمان أيضًا.

والوجه الثاني من الابتلاء وهو الابتلاء بالنقم والـشدائد، فـإن اسـتقبله المـرء بالعويـل و الـصراخ والجزع والفزع، وقصر نظره على النقم والشدائد، ولم يقبـل إلى الله تعـالى الـذي لاتـصيب مـصيبة إلا بإذنه سبحانه ﴿مَآ أَصَابَ مِـن مُّـصِيبَةٍ إِلَّا بِـإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِـٱللَّهِ يَهْـدِ قَلْبَـهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُـلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن:١١].

والابتلاء بالسيئات والنقم أكثر من الابتلاء بالنعم والحسنات، فإن الأول أكثر جلاءً لحقيقة المرء وطبيعته. ومن هنا نرى المصائب والآلام في الدنيا أكثر من النعيم. قال الله تعالى: ﴿لَقَـــدْ خَلَقْنَـــا ٱلْإِنـسَـٰنَ فِى كَبَـدٍ﴾ [البلد:٤] أي في شدة ونصب وعناء.

والنـاظر في خلـق الإنـسان يـرى بوضـوح أنـه يواجـه المـشقة والـشدة في جميـع أطـواره، فيولـد مـن بطـن أمـه وهـو طـور و وضـع شـديد، يـصيح الطفـل ويـصرخ حينئـذ، وهـل رأيـت طفـلًا خـرج مـن بطـن أمـه باسـمًا ضـاحكًا؟ ثـم انظـر في زمـن الإرضـاع والفطـام، ثـم يتقـدم بـه العمـر فيقـاسي مـا يقـاسي في طلـب العـيش وكـسبه. ثـم إن المـرء يتمنـى آلاف الأماني، فلاتتحقق منها إلا بعضها، فيشتد قلقه على فشله في تحقيق ما عداها، فيضيق به ذرعًا، وهو من لوازم البشرية.

قـال الإمـام الـرازي في تفـسير الآيـة بعـد سرد الأقـوال في معنـى الكبـد: «وعنـدي فيـه وجـه آخـر، وهـو أنـه ليس في هـذه الدنيا لـذة البتة؛ بل ذاك يظـن أنـه لـذة فهـو خـلاص عـن الألم، فـإن مـا يتخيـل مـن اللـذة عند الأكل فهـو خـلاص عـن ألـم الجـوع، ومـا يتخيل من اللذات عند اللبس فهو خلاص عن ألم الحر والبرد، فليس للإنسان، إلا ألم أو خلاص عن ألـم، وانتقـال إلى آخـر، فهـذا معنـى قولـه: ﴿لَقَـــدْ خَلَقْنَـا ٱلْإِنـسَـٰنَ فِى كَبَـدٍ﴾، ويظهر منه أنه لابد للإنسان من البعث والقيامة؛ لأن الحكيم الذي دبر خلقة الإنسان إن كان مطلوبه منه أن يتألم، فهذا لا يليق بالرحمة، وإن كان مطلوبه أن لا يتألم ولا يلتذ، ففـي تركـه عـلى العـدم كفايـة في هـذا المطلـوب، وإن كان مطلوبه أن يلتذ، فقد بينا أنه ليس في هذه الحياة لذة، وأنه خلق الإنسان في هذه الدنيا في كبد ومشقة و محنـة، فـإذًا لا بـد بعـد هـذه الـدار مـن دار أخـرى،

لتكـون تلـك الـدار دار الـسعادات واللـذات و الكرامات».

وحين خلق الله تعالى هذا العالم جعله محلًا للحسنات والسيئات والخير والشر، والفرح والترح، والنعمة والنقمة. فإن العالم الذي يتمحض فيه الخير والسرور هو الجنة، والعالم الذي يتمحض فيه الشرور والمصائب هو النار، وهذا العالم يجمع بين نماذج من النار ونماذج من الجنة.

ومن سنة الله تعالى أن جعل الاختبار والابتلاء على قدر النعم، فمن كانت نعمه عليه أكثر كان ابتلاؤه واختباره أشد وأعظم. فلما كانت النعم على الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أكثر وأعظم كان ابتلاؤهم أكثر. ويؤيد ذلك ما وراه الإمام أحمد في مسنده (برقم:١٤٨١) عن سعد، قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الناس أَشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأَمْثَلُ فالأمثلُ من الناس، يُبتلَى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زِيد في بلائه، وإن كان في دينه رِقّةٌ خُفِّف عنه، وما يزال البلاءُ بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة».

وروى البخاري في صحيحه (برقم:٢٢١٧) عن عبد الله قال: دخلت على رسول الله -ﷺ- في مرضه، فمسسته بيدي، وهو يوعك وعكًا شديدًا، فقلت: يا رسول الله! إنك توعك وعكًا شديدًا، قال: «أجل، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم». قلت: ذلك أن لك أجرين، قال: «أجل؛ ذلك كذلك، ما من مسلم يصيبه أذى؛ شوكة فما فوقها- وفي رواية: فمرض فما سواه-؛ إلا كفر الله- وفي رواية: حط الله- بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها».

فالابتلاء بالمصائب والآلام والأحزان يهدف إلى تطهير روح المؤمن ليصل العبد إلى المنزلة التي أرادها الله تعالى له، فقد يكون والغًا في الذنوب والمعاصي التي تحول دون وصوله إليها.

روى ابن حبان في صحيحه (برقم:٢٩٠٨) عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل لتكون له عند الله المنزلة فما يبلغها بعمل فلا يزال الله يبتليه بما يكره حتى يبلغه إياها». ورواه أبو يعلى وفي رواية له: «يكون له عند الله المنزلة الرفيعة»، ورجاله ثقات.

وروى الإمام أحمد في مسنده (برقم: ٢٢٣٣٨): عن محمد بن خالد، عن أبيه، عن جده - وكان لجده صحبة - أنه خرج زائرًا لرجل من إخوانه فبلغه شكاته قال: فدخل عليه فقال: أتيتك زائرًا عائدًا ومبشرًا. قال: كيف جمعت هذا كله؟ قال: خرجت وأنا أريد زيارتك فبلغتني شكاتك، فكانت عيادةً وأبشرك بشيء سمعته من رسول الله ﷺ قال: «إذا سبقت للعبد من الله

منزلة لم يبلغها بعمله، ابتلاه الله في جسده أو في ماله أو في ولده، ثم صبره حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له منه».

ومثل العبد الذي ألم بالقاذورات مثل الثوب الذي تدنس بالأوساخ؛ فكل واحد منهما يحتاج إلى تطهير وتنقية ليصلح ما خلق له. والثوب مهما كان غاليًا وثمينًا لايرضى المرء أن يرتديه إذا أصابه الوسخ فإذا تناوله القصار وحمله إلى النهر وفركه بشدة على الصخرة قبل أن يفرشه في الشمس ليجف، فيعيده إلى صاحبه نظيفًا صافيًا طاهرًا من الأدران، فيرتديه قميصًا كان أو عمامة أو نحو ذلك.

كذلك العبد حين يلم بالمعاصي والذنوب يصيب روحه الأوساخ فيحتاج إلى أن يفرك على صخور الآلام والمصائب والأحزان. والله تعالى في غنىً عن إنزال الآلام والنكبات على عبده، وإنما يعرضه لمثل هذه المحن لتطهير روحه وتنقيتها حتى يصلح لنيل المنزلة التي قدرها وكتبها له في علمه سبحانه، فيدخل الجنة التي أعدها للصالحين من عباده وإمائه سبحانه وتعالى. ولولا هذا الابتلاء وهذا الاختبار وهذا التمحيص والجلاء لبقيت آثار المعاصي والذنوب عالقةً بروحه مما يحول دون صعوده إلى المنزلة السامية التي كتبها له. قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران:١٤٠].

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [القصص:٨٣-٨٤].

وروى الإمام أحمد في مسنده (برقم:٨٣٧٩) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله-ﷺ-: «لما خلق الله الجنة والنار، أرسل جبريل قال: انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فجاء فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، فرجع إليه قال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها. فأمر بها فحجبت بالمكاره، قال: ارجع إليها فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها. قال فرجع إليها وإذا هي قد حجبت بالمكاره. فرجع إليه قال: وعزتك قد خشيت أن لا يدخلها أحد. قال: اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فإذا هي يركب بعضها بعضًا، فرجع قال: وعزتك لقد خشيت أن لايسمع بها أحد فيدخلها، فأمر بها فحفت بالشهوات. فقال: وعزتك لقد خشيت أن لاينجو منها أحد إلا دخلها».

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

من ظلال التفسير

(من سورة الأعراف)

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)
تعريب: أبو عائض القاسمي المباركفوري(*)

وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

ولكون الجنة والنار في الوسط كانوا بين الخوف والرجاء، فينظرون إلى هذه فيرجون، وينظرون إلى هذه فيخافون الله ويستعيذون به متضرعين ألا يجعلهم مع أصحاب النار.

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾

أي علاوةً على العذاب في النار يتجلى في وجوههم سيما كونهم من أهل النار، أو المعنى: أناس رآهم أصحاب الأعراف في الدنيا، فينظرون إليهم ويعرفونهم بصورهم.

فائدة:

أين فئاتكم وأحزابكم في هذه المصيبة؟ وأين تبجحكم ومفاخرتكم الجوفاء في الدنيا؟

أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

يقال لأهل النار مشيرًا إلى أهل الجنة: إن هؤلاء الضعفاء المساكين الذين كنتم تزدرونهم، و تقولون: هل نزلت رحمة الله تعالى ومنته على أمثال هؤلاء من دوننا: (أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَا) [الأنعام:٥٣]، فيقال لهم: (ٱدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ)[الأعراف:٤٩]. وأنتم في عذاب النار.

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

ويتكفف أهل النار وهم في هرج ومرج واضطراب وقلق- إلى أهل الجنة، يقولون لهم: نحترق في النار، فهلا تصبون علينا شيئًا من الماء أو مما أنعم الله تعالى عليكم، فيقال لهم: هذا حرام على الكفار. أليس هؤلاء الكفار هم الذين كانوا يتلاعبون بالدين، ويفخرون بما في الدنيا من النعيم؟ فكما نسوا الآخرة حين انصرفوا إلى ملذات الدنيا، كذلك ننساهم اليوم، ونعرض عنهم، وكما أنكروا آياتنا كذلك نأبى الاستجابة لطلبهم اليوم.

وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

مع توفر القرآن الكريم ذلك الكتاب الذي يستوعب تفاصيل علمية لكل ما يُحتاج إليه، ويبيِّن الأمور كلها بيانًا شاملًا، فأهل الإيمان ينتفعون به كل الانتفاع، ما أفظع أن هؤلاء المستكبرين لم يتأملوا في عاقبة أمرهم إطلاقًا؟! فما فائدة الندم حيث لات مندم.

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

وما ورد في القرآن الكريم من التهديدات بالعذاب هل هؤلاء ينتظرون صدق هذه التهديدات فيقبلون الحق حينئذ؟ ولاينفعهم القبول فتيلًا حين يتحقق ماصدقها أي حين ينزل عليهم العذاب الإلهي.

وحينئذ يلتمسون الشفعاء الذين يدفعون عنهم عقوبة الله تعالى بالشفاعة إليه سبحانه، ولايجد الكفار أمثال هؤلاء الشفعاء، فيتمنون أن يُرجعوا إلى الدنيا مرةً أخرى، ويتم اختبارهم وامتحانهم، فإننا نعمل عملًا صالحًا ونتقي الله تعالى على خلاف ما كنا فيه من العصيان والجريمة، ولكن ما فائدة هذه الأمنية اليوم؟ وقد ضيعتم أنفسكم بأيدكم، وضل عنكم ما كنتم تفترون من المزاعم الباطلة.

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾

تحدثت الآية السابقة عن المعاد، وهذا الركوع يُعرِّف المبدأ. ونبه بقوله: (قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ) [الأعراف:٥٣] على أنه يضطر حتى الذين كانوا يعرضون عن الأنبياء والرسل في الدنيا إلى تصديقهم يوم القيامة شاؤوا أم أبوا. وبعد أن أشار -بأسلوب لطيف جدًا- إلى ملك الله تعالى،

والحاجة إلى الأنبياء والرسل، يذكر أحوال وأحداث بعض الأنبياء المشاهير، وأنه كيف كان عاقبة الذين صدقوهم أو كذبوهم في الدنيا قبل الآخرة. فكأن هذا الركوع تمهيد للركوعات التالية.

فائدة:

أي في زمن يعادل ستة أيام؛ لأن المعروف من الليل والنهار يرجع إلى طلوع الشمس وغروبها، فما معنى الليل والنهار حينئذ وليس فيه شمس؟ أو نقول: ليس المراد ليل عالم الشهادة ونهاره؛ بل ما يكون في عالم الغيب، كما قال أحد العارفين بالفارسية ما معناه:

«ما في الغيب من السحاب والماء مختلف، والشمس والقمر فيه مختلف».

ثم اختلف أهل العلم في الوجه الأول، هل المراد هنا بالستة أيام مقدار أيامنا هذه؟ أو المراد به يوم مقداره ألف سنة؟ كما قال تعالى: (وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّوْنَ) [الحج:٤]، والراجح عندي القول الأخير. فالحاصل أن السماء والأرض لم يأتِ نصبهما بالخلق دفعةً واحدةً، فلعل الله تعالى خلق أولًا مادتهما، ثم حولهما – حسب استعداد كل- بصورة تدريجية إلى مختلف الصور والأشكال حتى صارتا في ستة أيام (ستة آلاف) على ما نراهما اليوم بجميع ما يتعلق بهما، كما تحصل ولادة وخلق الإنسان، وجميع الحيوانات والنباتات وغيرها بصورةٍ تدريجيةٍ. ولاينافي ذلك كونه أمره تعالى: (كُنْ فَيَكُوْن)، فإن معنى هذا القول ليس إلا أن الله تعالى إذا أراد إيجاد شيء في درجة من الدرجات حصل في درجته، ولايعني ذلك أن الله تعالى لايريد تمرير شيء في مختلف المدارج، وإنما يخلق كل شيء دفعةً واحدةً من غير توسيط الأسباب والعلل.

فائدة:

لايغيبن عن البال فيما يتعلق بصفات الله تعالى وأفعاله أن ما ساقته نصوص القرآن والحديث من الكلمات والألفاظ لبيان صفات الله تعالى، معظمه مما أطلق على صفات المخلوق أيضًا، مثلًا كونه تعالى حيًا سميعًا بصيرًا متكلمًا، وقد أطلقت هذه الكلمات على البشر أيضًا، فالإطلاق في الموضعين يختلف بعضهما عن بعض كل الاختلاف، فمعنى وصف خلق من الخلق بالسميع و البصير أنه يملك العين للنظر، والأذن للسماع. ففيه أمران: الأول: الآلة- وهي العين، وهي مبدأ النظر وأداته-والثاني: نتيجته وغايته، وهي الرؤية. أي العلم الخاص المتعلق بالرؤية البصرية. وإذا أطلقنا كلمة «بصيرًا» على الخلق، لوحظ المبدأ والغاية معًا. وقد عرفنا كيفية كل واحد منهما. وأما إذا أطلقت هذه الكلمة على

الله تعالى، فمن اليقين أنه ليس المراد تلك المبادئ والكيفيات الجسمية حتمًا، مما يخص المخلوق، والله تعالى منزه منه قطعًا ويقينًا. ولكن يجب الإيمان بأن مبدأ الإبصار -الرؤية- كامن في ذاته سبحانه، ونتيجته أي العلم الحاصل بالرؤية البصرية - له على أكمل وجه. ثم طبيعة هذا المبدأ، وكيف يبصر سبحانه وتعالى، فلايسعنا إلا أن نقول: إن إبصاره ليس مثل إبصار المخلوق، (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيْعُ الْبَصِيْرُ) [الشورى:١١]. ولايقتصر الأمر على السمع والبصر؛ بل يجب أن نحمل عليه جميع صفاته. فالصفة ثابتة بالنظر إلى أصل مبدئها وغايتها، ولكن لايسعنا شرح كيفيتها إطلاقًا، ولا كلفت الشرائع السماوية البشر أن يخوض في مثل هذه الحقائق التي تفوق العقل فيصاب بالقلق والاضطراب. وسبق أن شرحنا بعض ذلك في فائدة قوله: (وَقَالَتِ الْيَهُوْدُ يَدُ اللهِ مَغْلُوْلَةٌ) [المائدة:٦٤]. وقِس على ذلك الاستواء على العرش أيضًا، فالعرش معناه السرير والمكان العالي، وحمله معظم المفسرين على الاستقرار والتمكن، كما حمله المترجم رحمه الله على التمكن، فكأن هذه الكلمة تكشف عن التمكن من الحكومة تمكنًا لايدع جزءًا أو ناحيةً منها خارج النفوذ والقدرة، ودون المزاحمة في القبضة والسلطة، ويستمر كل الأمور على ما يرام. وجلوس الملوك على العرش في الدنيا له مبدأ وصورة ظاهرة، وله حقيقة أو غرض وغاية، أي كامل السلطة والقدرة والنفوذ والتصرف. واستواء الله تعالى على العرش يتضمن هذه الحقيقة والغاية على أتمها، أي بعد أن خلق السماء والأرض- أي بعد أن خلق جميع ما في العلو والسفل- اختص الله تعالى بكامل القبضة والقدرة وجميع صور الملك والسلطة، والتصرف الملكي من غير مزاحمة. وقوله - بعد (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ) - وفي مكان آخر(يُدَبِّرُ الأَمْرَ) ونحوه، وكذلك قوله هنا: (يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ) الخ، تنبيه على ذلك المعنى. وأما فيما يتعلق بمبدأ الاستواء على العرش وصورته الظاهرة فيجب الإيمان بما ذكرناه في السمع والبصر وغيرهما من الصفات، وهو تنزيهه من أهون شوائب صفات المخلوق وسمات الحدوث. فكيف هذه الصفات يا ترى؟ فالجواب ما قيل في الفارسية ما معناه:

«يا من يفوق الخيال والقياس والظن والوهم.. ومما قالوه فسمعناه وقرأناه.

نفدت السجلات، ونفدت الأعمار... ولازلنا في الثناء على أول صفاتك».

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيْعُ الْبَصِيْرُ) [الشورى:١١]

فائدة:

أي يغطي ظلام الليل بنور النهار، ويغطي نور النهـار بظـلام الليـل، فيـسرع في مـشيه متعاقبًـا، فلاينقـضي الليـل إلا وقـد دخـل النهـار، أو لاينقـضي النهـار إلا وقـد دخـل الليـل، دون فـترة زمنيـة بينهما وإن لم يتجاوز دقيقةً واحدةً. وربما نبَّه أيضًا على أن الله تعالى يبسط النور في كل مكان بشمس الإيمان والعرفان حين يسود العالمَ الليل الأليل من الكفر والضلال والظلم والعدوان. ويستمر قمر النبوة وكواكبها بالإنارة والهداية في ظلام الليل ما لم يطلع نور الشمس المنير للعالم كله.

فائدة:

لايتحرك كوكب من الكواكب من غير إذنه وأمره سبحانه وتعالى.

فائدة:

الإيجاد هو الخلق، ثم توجيه الأحكام التكوينية والتشريعية بعد الخلق يطلق عليه «الأمر»، وهما بيده سبحانه، فهو منبع جميع الخيرات والبركات.

ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥

فإذا كان بيده الخلق والأمر، وهو منبع جميع البركات، فالواجب دعاؤه هو في جميع الحاجات الدنيوية والأخروية، بكل إلحاح وإخلاص، وخشوع وخضوع، من غير رياء دعاءً خفيًّا. ودل ذلك على أن الأصل في الدعاء هو الإخفاء، وعليه كان السلف، وكان الجهر والإعلان في بعض المواضع لعارض، فصّله في روح المعاني وغيره.

فائدة:

لايعتدي في الدعاء، بأن يطلب مثلًا المحال عادةً أو شرعًا، أو يطلب المعاصي ولغو الأمور، أو يسأل ما لايناسب مكانته؛ كل ذلك يدخل في الاعتداء في الدعاء.

وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦

شرحت الآيات السابقة الطريق إلى دعاء الله تعالى في الحاجات كلها، وهذه الآية تنبه على مراعاة حقوق المخلوق والخالق جميعًا، أي إذا كانت الأمور في الدنيا صالحةً وقويمةً فلاتفسدوها، و اشتغلوا في عبادة الله تعالى خائفين راجين، فلاتقنطوا من رحمته، ولاتأمنوا عذابه، فتتجرؤوا عليه. وهذا هو الراجح عندي هنا أن المراد بالدعاء في قوله: (وادعوه) الخ هو العبادة، كما قال بعد ذكر صلاة التهجد: (تَتَجَافٰى جُنُوْبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُوْنَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَّطَمَعًا)[السجدة:١٦].

وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ

رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

ذكرت الآيات السابقة - بجانب الاستواء على العرش- تصرفات الله تعالى في الفلكيات من القمر والشمس وغيرهما، وتخلل ذلك بعض التوجيهات المناسبة للعباد، ثم ذكر الله تعالى بعض تصرفاته في السفليات وكائنات الجو، ليعلم الناس أن الحكم في السماء والأرض وما بينهما كله بيد الله تعالى، فتصريف الرياح، وإنزال المطر، وإخراج أصناف من الأزهار والفواكه، وإخراج الزرع والنبات من كل أرض حسب استعدادها؛ كل ذلك من آيات قدرته الكاملة وحكمته البالغة. وشرح في هذا الصدد بعث الموتى، وخروجهم من القبور أيضًا، ويقول الشاه – عبد القادر- رحمه الله: ثمة خروج للموتى يوم القيامة، وآخر في الدنيا أي بعَثَ النبي العظيم في الجهلة وعامة الناس- ممن ماتوا موت الجهل والذل- وأعطاه الله تعالى علمًا، وجعله سيد الكون، فبلغ الكمال من كان على استعداد نزيه، وأما من فسد استعداده، فإنهم يستفيدون أيضًا كاملًا أو ناقصًا. فكأن هذا الركوع كله ينبه على أن الله تعالى إذا كان يضيء ظلام الليل برحمته وكرمه بالكواكب والقمر والشمس، ويهيئ عند القحوط ما يجعل الأرض خضراء ويبعث الحياة في الناس والحيوانات فينزل الماء من السماء، فكيف لايخلق الله تعالى الرحيم الكريم القمر والشمس لإخراج الخلق من ظلمات الجهل والظلم، وكيف لاينزل أمطار رحمته لتهيئة الغذاء الروحاني لبني آدم، ولسقي مزارع قلوبهم؟؟ لاشك أنه أرسل الرسل حسب حكمته في كل عصر حسب حاجته، ممن أنارت صدورهم المنيرة بالنور الروحاني، ونزلت أمطار الوحي متواليةً. فالركوعات العدة التالية تذكر بعث هؤلاء الأنبياء والرسل. و كما أن مثال المطر والأرض يضمن إشارةً إلى أن الأراضي المختلفة تتقبل من آثار المطر على اختلاف استعدادها، فقِسْ عليه ما يأتي به الأنبياء من الخير والبركة، يتوقف الانتفاع به على حسن الاستعداد، فلايلومن من لاينتفع به إلا سوء استعداده، ونعم ما قال الشاعر الفارسي ما معناه:

«إن المطر لاشك في لطف طبيعته.... ولكن ينبت به في البستان الزهر، وفي الأرض المالحة الأجمة».

* * *

أدبُ الدرس وأدبُ النفس

بقلم: الأستاذ / عبد اللَّه عبد الغني خياط

بين أدب الدرس وأدب النفس ترابط من حيث تكييف الشخصية والارتفاع بقيمتها فالأديب – أدب الدرس – نجم يتألق في مجتمعه لما أفاده من ثقافة وأدب يصور به المشاعر والأحاسيس ويستنهض الهمم ويلهب الحماس بكتاباته ورفيع بيانه وبخطبه وندواته الأدبية أو بمؤلفاته وأبحاثه الطريفة الشَيقة في دنيا الأدب، وأدب النفس له الأثر البارز في التجافي بالمسلم عن الإسفاف والأخذ به إلى مشارف الفضيلة للتخلق بأخلاق الملائكة ويرفرف بأجنحة الطهر بين المجموع. وكلا الأدبين مكتسب مدرك لمن أخذ بأسبابه واستبق ميادينه وارتفعت نفسه لمعالجته. والإسلام يرسم أقوم المناهج لكلا الأدبين – فهو أي الإسلام كما يقول عنه بعض العلماء ماهو إلا إرشاد لما يجب أن يكون عليه الإنسان ليأخذ بالكمال بحظ وافر في هذه الحياة. ففي مجال أدب الدرس يحظر الإسلام التشدق باستعمال المعقد من الكلام والغريب من اللفظ تكلّفًا للفصاحة وإظهارًا للبلاغة وإعلانًا عن النفس وتعاليًا على الغير. فعن أبي هريرة مرفوعًا «من تعلّم صرف الكلام ليصرف به قلوب الرجال والنساء لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفًا ولا عدلًا». رواه أبوداود، وجاء ابن لسعد بن أبي وقاص إلى سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فسأله حاجةً – فتكلم بين يدي حاجته بكلام فقال سعد: ما كنت بقضاء حاجتك بأبعد منك اليوم إني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «يأتي على الناس زمان يتخلّلون الكلام بألسنتهم كما تتخلل البقرة الكلأ بلسانها». قال بعض العلماء: – وكأنه أنكر عليه ما قدمه على الكلام من التشبيب والمقدمة المصنوعة المتكلفة وكذلك التكلّف بالسجع في المحاورات، من ذلك أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قضى بِغُرّة في دية الجنين فقال بعض أهل القاتل: – كيف ندي من لاشرب ولا أكل ولا صاح ولا استهل ومثل ذلك يُطل. فقال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أسجعا كسجع الأعراب؟» قال العلماء تعليقًا على ذلك: – أنكر عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك؛ لأن أثر التكلف والتصنع

واضـح عليـه واسـتدل بـذلك عـلى ذم الـسجع في الكلام وأنه موضع الكراهة إذا كان ظاهر التكلف وكذا لو كان منسجمًا؛ لكنه في إبطال حق أو تحقيق باطـل أي يحـاول أن يقـيم الحجـة بـه، أمـا لـو كـان منسجمًا وهو حق أو في مباح فلا كراهة.

وما جاء منه عن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فلم يكن عـن قـصد التسجيع وإنـما جـاء اتفاقًـا لعظـم بلاغتـه وأما من بعده فقد يكون فيه التكلف عن قصد وهو الغالب. جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما منكـرًا عـلى مـن يعتمـد التسجيع (أسـجع الجاهليـة وكهانتهـا) ففـي ذلـك دليـل عـلى أن المـذموم مـن السجع كما أسلفنا القول ما كان فيه السجع متكلفًا أو يراد به إبطال شرع أو إثبات باطل، وذهب بعض العلماء إلى أنه لايدخل في القسم المذموم من السجع ما يكون منه تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير إفـراط ولا إغـراب. ذلـك أن المقـصود منـه تحريـك القلوب وتشويقها للخير وترهيبها والتجافي بها عن المزالق والمهابط مما يكون له الأثر السيئ في سلوك المـسلم ويترتـب عليـه المؤاخـذة وعـسير الحـساب، وذهبـوا إلى أن المحـاورات – التـي تكـون لقـضاء الحاجات فلا يليق بها السجع والتشدق؛ إذ لا باعث عليه إلا الرياء وإظهار الفصاحة والبراعة في المنطق وكلّ مذموم، ننتقل بعد ذلك من أدب الدرس إلى أدب النفس وهو أوسع مجالًا وألصق بحياة المسلم، ولئن كان لأدب الدرس مقام ملحوظ ورفعة شأن لمـن يتحلّى به فإن لأدب النفس أثره البارز في تزكية النفـوس وتطهيرهـا أو كـما سـبق أن قلنـا للتخلّـق بـأخلاق الملائكـة فيـسمو المـسلم إلى درجـات مـن المثالية، ويكـون مظهـره كمخبره في الـصون والعفـة والطهـر والاسـتقامة والتقـوى ولـيس كـل النـاس يتحـتم عليـهم أن يكونـوا أدبـاء أدب درس يكتبـون ويخطبون ويؤلفـون وإن كـان مـن الأفضل أن ترتفع نـسبة المتـأدبين بهـذا الأدب في المجمـوع، ولكـن المفـروض شرعًـا أن يتـأدب كـل فـرد في المجمـوع بـأدب الـنفس ذكـورهم وإنـاثهم سادتهم ودهمـاؤهم صـغارهم وكبـارهم، الكـل مفـروض عليـه أن يأخـذ نفسه بهـذا الأدب – وأن يكـون لهـا النـصيب الأوفـر منـه، ففيـه فلاحهـا وزكاتهـا وعليـه يترتـب سـعادتها وشقاؤها وصدق الله إذ يقول:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.

أفلـح مـن زكـى نفـسه وأدبهـا بـأدب الـنفس وارتفع بها عن المهابط والمآخذ وخاب وخسر من دنسها بسلوك السبل الملتوية، وباعد بينها وبين أدب النفس المفروض عليها أن ترتفع به.

والحـديث عـن أدب الـنفس ذو شـقين: الـشق

الأول عن المثل التي يجب أن يستمسك بها المسلم والتي خطط لها الإسلام في مختلف المجالات.

والثاني عن المهابط التي يجب أن يتجافى المسلم عنها مما يتنافى مع خلقه والتربية التي يريدها الإسلام، أما المثل التي يجب أن يتمسك بها المسلم فلا تقع تحت الحصر، ذلك أنها متعددة الجوانب، فكلّ فضيلة وكل خلق رفيع وكل اتجاه سليم، نظيف هو من المثل التي يجب أن يستمسك بها المسلم، وحديثنا عن اتجاه خططه له الإسلام، يدفع إلى اندماج المسلم في المجموعة كمجند يحمل قسطه من المسؤولية، لدعم الإخاء، وبذل الولاء، والتضامن مع غيره. فالمسلم لا يكون بطبيعة وضعه انعزاليًا لايهتم إلا بمصلحته ورعاية شأنه وحده دون أن يكون له إحساس بالمسؤولية المشتركة التي تلزمه بهذا الواجب الإسلامي الإنساني.

ولذلك جاء في التوجيهات الدينية ما يشحذ عزمه ويشعره بواجبه ويصور له واقعه كلبنة يشتد بها البناء قال تعالى:

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

فلم تتحدث الآية عن الفرد؛ بل تحدثت عن واقع المجموع على اعتبار الفرد جزءًا منه يقوم بعبادة ربه متضامنًا مع إخوانه ويبذل لهم ولاءه، ومظهر آخر لدعم الإخاء وبذل الولاء يلحظ في تضامن المسلم مع إخوانه وهو مشروعية صلاة الجماعة والوقوف فيها صفًا واحدًا لا يختلف على بعضه أو يتقدم فيه فرد على آخر، ورغب الشرع في المحافظة على هذا المظهر الاتحادي بتضعيف أجر المشترك فيه كتعويض له يتمايز به عن غيره حيث جعل الجماعة تفضل على صلاة الفرد بسبع وعشرين أو خمس وعشرين درجةً. وفي مجال آخر لحمل المسؤولية المشتركة بين المسلمين لتماسك المجتمع وتضامنه والخروج بالمسلم عن الانعزالية يقول الله سبحانه:

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ﴾.

فرسمت الآية مبدأ التعاون وهو في واقعه أُس الاجتماع وعماد التضامن. والبرّ والتقوى فضيلتان يتفاوت في استباق ميادينهما المسلمون، فكلما اتسعت فيها الأبعاد كلما كان المسلم أكثر تضامنًا مع إخوانه وكان المجتمع أقوى تماسكًا وأعز نفرًا، يقول رسول الله الهدى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تصوير واقع المسلم من حيث إنه لبنة في بناء مجتمعه يشتد بها البنيان وترسخ قواعده: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا». هذا التعاون والتضامن على البر

والتقـوى بالإضـافة إلى أنـه عامـل قـوة للمجتمـع وتماسكه، هو أدب رفيع أدب الله به المسلم ليخرج عن الانعزالية كما أسلفنا القول، وليشعره بالمسؤولية المـشتركة، والواجـب نحـو إخائـه وصـدق ولائـه للمسلمين. وليس للتعاون والتضامن نطاق محدود أو مطلب معين وإنما هو مدّ كثيرًا ما يوجه الإسلام الأنظـار إلى جوانـب منـه، ففـي حـديث طويـل للمـصطفى صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يقـول فيـه: «مـن كـان في حاجـة المـسلم كـان الله في حاجتـه». والحاجـات تختلف فيها المطالب وتتنوع الأغراض والتعاون على قضائها والتضامن فيها مع أهلها، مظهر من مظاهر الـشعور بالمـسؤولية المـشتركة. ويقـول في الحـديث نفسه موسعًا أبعاد التعاون على الخير في كل مجالاته: «ومن فرجّ عن مسلم كربةً من كرب الدنيا فرج الله عنه كربةً من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلمًا ستره الله في الـدنيا والآخـرة والله في عـون العبـد مـا كـان العبد في عون أخيه»، أي بكل وسيلة مشروعة وفي أي مجال للعون سواء كان ماديًا ببسط اليد والإسهام في تخفيف ضائقة العيش ووطأة الفقر أو كان أدبيًا بوساطة الخير يبذل المسلم فيها جاهه، ويستغل نفوذه وإمابردّ ظلامة لدى السلطان أو لاستعادة حـقّ سـليب يكـون المـسلم ظهـيرًا فيـه لأخيـه في استرداده ولو ببذل تضحية يؤجر عليها، جاء في الأثر «من مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقه ثبت الله قدميه على الصراط يوم تزلّ الأقدام».

أو يكون العون على الخير في حقل العلم كنشر الثقافـة والإسـهام في فـتح المـدارس والجامعـات ومـدّها بـما يعـضد مركزهـا ويقـوي مـن نـشاطها أو بالمجهود الشخصي يبذله المتعلم والمثقف كضريبة لعلمه وتثقيفه يفرض عليه أن يؤديها لأبناء مجتمعه دون تعالى عن ذلك أو احتكار للعلم وضنّ به.

أو يكـون العـون عـلى العكـس ممـا يبـدو مـن مظهـره أي يأخـذ مظهـر الـشدة والقـسوة وذلـك كالأخذ على يد الجاني وتقويم المعوج من مسالكه تجافيًا فيه عن الهلكة لو تمادى في طريق الغواية دون رادع أو مؤاخذة، ولذلك يوجه الأمة رسول الهدى صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إذ يقـول: «انـصر أخـاك ظالمـًا أو مظلومًـا» قـالوا: «يـا رسـول الله، ننـصره مظلومًـا فكيف ننصره ظالمًا؟ قال: تأخذ على يديه فتحجزه عن ظلمه» أو كما قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وبعد فإن إخراج المسلم عن الانعزالية في كل مجالاتها وفرض التعاون عليه كعضو في المجتمع في مختلـف ضروب التعـاون وإشـعاره بالـسمؤولية المـشتركة نحـو إصـلاح غـيره كـل ذلـك مـن أدب النفس الذي خطط له الإسلام.

* * *

من تـاريخ الجامعة الإسلامية : دارالعلوم/ ديوبنـد

(الحلقة ١٢٩)

بقلم: **الأستاذ/ سيد محبوب الرضوي الديوبندي -رحمه اللّه-**
(المتوفى ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م)
ترجمة وتعليق: **محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري**(*)

مقدمة الكتاب

ومـن هنـا كـان مولانـا عبيـد الله الـسندي رحمـه الله يقـول: إن الحكمة القاسمية هي السلم الوحيد إلى حكمة الشاه ولي الله الدهلوي، لايسع أحدًا أن يصل إلى مدارك الشاه ولي الله حق الوصول إلا بالمرور عليها. فإن العلوم التـي كـان يقـدمها ويعرضـها الـشاه ولي الله الـدهلوي في لباس من الذوق والكشف، أبرزها وعرضها الإمام قاسم النـانوتوي في لبـاس مـن الاسـتدلال، وهـو في الجملـة مألوف، ولكن لايسع أحدًا من الشاكين أن ينكر ويرفض، كـما أنـه يحمـل المنكـرين والملحـدين عـلى الاعـتراف بـه. ويفسرها ضمن الآيات والأحاديث النبوية تفسيرًا حكيمًا. كما أنه يأخذ بأيدي المنحرفين بحكمته إلى أعتاب الآيات والأحاديث، ليسهل لهم الدخول إلى قصر الدين شريطة أن تبلغهم هذه الحكمة، أو يتم تبليغها لهم. وكما أن الحكمة الولي اللاهية إلهامية، كذلك تمثلت الحكمة القاسمية إلهامًا وخزانةً من العلم اللدني. وكما أن حكمة الولي اللاهية يـصرح عنهـا صـاحبها في كلامـه بأنهـا إلهاميـة، لا نتيجـة المساعي العقلية، وسبق بيانها وتوضيحها في كلامه. كذلك الحكمـة القاسـمية قـد تـضمن كـلام صـاحب الحكمـة تصريحاته. كما يقول في كتابه «مصابيح التراويح»:

«أكتب بالقلم ما ينزل على صفحة قلبي».

أو كـما يقـول في كتابـه «تقريـر دل بـذير» وهـو يشرح قضية القضاء والقدر: «لقد أمسك القلم حين وصـل إلى مكـان كـذا مـن هـذه القـضية، وتوقـف الطبع، فرجعت إلى رب العزة تعالى فقلت:

«وقطرة واحدة منحتها من المعرفة فيما سبق، أوصـلها يـا إلهـي ببحـارك»، فـانفتح -ولله الحمـد- البابُ، فأصب على الأوراق ما يلقيه على قلبي- أو كـما قـال-، وكـذلك صرح بـه في مواضـع أخـرى. وكذلك يوجد في كلام الشاه عبد الغني كنايةً إن لم يكن صراحةً أن حكمته التفهيمية مما ألقي عليه، كما أخـبر نـور الـدين بتحـول المعقـول إلى المحـسوس بتلقين قولـه: «الله، الله» بعنوان الإكثار من الذكر.

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

ولايعنـي ذلـك إلا أن وارد هـذا الـورد إلهـام مـن الغيب، مر عليه، فذاقه ثم جعل الناس يذوقونه.

وعلى كل، فهي حكمة لدنية واحدة مرت على الشاه ولي الله رحمه الله بالإلهام، فلبست لباسًا بلون من العقـل في بيـان الـدين وشرحـه، ومـرت بالـشاه عبـد الغني، فنبهـت عـلى صـبغها بلـون مـن المحسوسات. ومرت على الإمام محمد قاسم النانوتوي فلبست رداءً مـن الحسيات بـدلًا مـن الـذوقيات، وخاصـة البرهـان الاسـتدلالي منهـا، وكلـما تقـدمت عقليـة الزمـان في التلون، اتخذت هذه الحكمة اللدنية ألبسةً تناسبها مع مرور الأيام. ويجمع بينها الإلهام والإلقاء الرباني. وهذا الإلقاء الرباني هو الذي تحول - بنعمة من الله تعالى- عقلية لهؤلاء الأسلاف، ولما كان الإمام النانوتوي قد استفاد منهم وتربى عليهم جميعًا، صار ترجمانًا كاملًا لمـذهب أهـل الـسنة والجماعـة. وأبـرز هـذه العلـوم في مناسبات مختلفة حينًا في لون من العقل، وحينًا في لون مـن الحـس، وحينًـا في لـون مـن الأسـلوب البرهـاني الاستدلالي، بتعليمه وتلقينه وكتابته وخطابته. فتمثل هـذا المـذهب متكـاملًا شـاملًا للعيـان. وبـرز شـموله وجامعيته بأنه يجمع بين النقل والعقل، وبين العقل والحس، وبين الحس واللون الاستدلالي. فجاء علم الإمـام محمـد قاسـم النـانوتوي جامعًـا بـين العلـم والمعرفة، وبين الحُكم و الحكمة، وبين النقل والعقل، وبين المعقول والمحسوس، وبين القانون والمصالح، وبين الشريعة والطريقة، وبين الإيمان والإحسان، وبين الإثبـات والـدفاع، أي جمـع بـين الـدين وعواطـف عظمتـه، و مـزج بينهـا ثـم عرضـه في لـون مـنعش مـن الترياق، وهي حقائق صدرت عن محض عين الإلهام، وقـد طبعـه الله تعـالى بفـضله الـذي لايتنـاهى عـلى أنـه حتى حين يتصدى لإثبات فرع من الفروع، يتجلى في لباس من الأصول الكلية، مما يحسم الأمر لا في فرع من الفروع؛ بل في مئات من الجزئيات و الفروع.

وغـير خـافٍ أن الإمـام محمـد قاسـم رحمـه الله كان هو الكل في الكل الفكرة الأساسية لدارالعلوم/ ديوبنـد، كـما صرح بـه تلامذتـه وأصـحابه ومـشايخه، فكان لابد أن يتجلى هذه المكانة الإلهامية في مذهب دارالعلـوم/ديوبنـد أيـضًا. وتبـين بـه أن مـذهبها وفكرتها الأساسية، واتجاهها الديني لم يـأتِ نتيجـةً لتفكير؛ بل يشكل قطرةً من البحر الذخار من الإلهام الإلهي. فيسوغ لنا أن نقول من غير خوف لومة لائم: إن الديوبندية في الواقع عبارة أوّلًا عن الولي اللاهية ثم عن القاسمية. وليست عبارةً عن مجرد الدراسة والتدريس. ويسوغ لنا القول - نظرًا إلى هذه النسَب العلمية فيها-: إنها ليست مجرد مدرسة؛ بل مدرسة فكر وهي - حسب المصطلح السائد اليوم- مدرسة فكرة مستقلة.

ويتجلى منه أن الديوبندية ليست دينًا أو فرقةً من الفرق، كما سماها أعداؤها بالديانة أو الفرقة في محاولة لاستفزاز عامة الناس عليها؛ بل هي مجموعة شاملة وطبعة متكاملة لمذهب أهل السنة والجماعة. تتجلى فيها جميع فروع أهل السنة والجماعة على صلة بأصلها. وما أحسن و أجمع ما قاله شاعر الشرق العلامة الدكتور محمد إقبال رحمه الله عن الديوبندية، وحق له ذلك، فإنه لما سئل عن الديوبندية ما هي؟ أ هي ديانة أو فرقة؟ قال: لا ديانة ولا فرقة؛ بل كل متدين بحق ديوبنديٌّ. فلله در ما قال.

والحاصل أن الفكرة الأساسية لمدرسة ديوبند، واتجاهها الديني الجوهري عبارة عن مذهب جامع وسط شامل لأهل السنة والجماعة، فجمع- لاحتوائه على السنة والجماعة- بين تعظيم أصول الدين -وهي الكتاب والسنة- واحترام الشخصيات، وهم الفقهاء والمحدثون والمفسرون والصوفية والأصوليون، والعلماء الربانيون. فلايعني هذا المذهب الانحراف عن الأصول والمبادئ إلى الاختراع والتجديد والتجدد، فينفتح الباب إلى البدع والمحدثات، ولا الانحراف عن شخصيات الدين، إلى الإعجاب بالنفس والإعجاب بالرأي، فينفتح الباب إلى الغرور والعنجهية والكبر والنخوة. وتذهب عاطفة احترام السلف الصالح والخلف العدول مهب الرياح. فسدَّ الباب على المرض الأول بلفظ (السنة)، وعلى المرض الثاني بلفظ(الجماعة). فوصل هذا المذهب الجامع الشامل الوسط على منجاة من هذه الهنات والأمراض عن طريق مدرسة ديوبند والمدارس التي على شاكلتها صحيحًا سليمًا إلينا. فإن المذهب الذي يشينه الإفراط والتفريط إنما مرده إلى فقد أحد هذين اللفظين -السنة والجماعة- أو انعدامهما. فإن فُقِدت «السنة» أصبح مذهب البدع والإحداث في الدين، وإن فقِدت «الجماعة» صار مذهبًا يشوبه الإعجاب بالرأي، والحرية الفكرية والجرأة، والإفراط والتفريط من إفرازات هاتين النقيصتين.

فساد كبير عالم متهتك

وأكبر منه جاهل متنسك

هما فتنة في العالمين كبيرة

لمن بهما في دينه متمسك

ونظرًا إلى هذه المعالم والآثار المنيرة في النسبة القاسمية، وسريانها في كل حجر من أحجار دارالعلوم/ديوبند جاءت بصورة عفوية قصيدة على لسان قلم هذا الكاتب والقرطاس، بعنوان «التعبير المنامي القاسمي»، في حين أني لست شاعرًا، وليس من عملي قول الشعر، ولكن العواطف حين تجيش وتتطلب الظهور والبروز، لم يشترط لها البراعة في نسج الشعر ولا تتقيد به. وهذه القصيدة باللغة الفارسية،

وإليكم بعض أبياتها نظرًا إلى سريانها في النسبة القاسمية وفي دارالعلوم، بالإضافة إلى صلتها بالفكرة الأساسية لدارالعلوم، ونرى عرضها مناسبًا لهذا المقام، فلايعد ذلك فصلًا بالأجنبي. والحاصل أن هذه الحقائق سبق أن مرت بكم في النثر، فعرضها في لباس من النظم لايشكل زيادةً جديدةً، وإنما الفارق هو أسلوب الأداء والعرض. وفيما يلي معناها:

أيتها النسبة القاسمية، ما أحسنك؟! فإن ضجة الدين قد حمي وطيسها من أجلك، في العالم دفاعًا أو هجومًا.

أيتها النسبة القاسمية، ما أكرمك؟! لقد نشأ دين الفطرة منك في الناس، عدولًا كانوا أو ظلمةً.

أيتها النسبة القاسمية، ما أنعمك؟! إن النعم كلها قد احتوت الآفاق بك عامةً.

أيتها النسبة القاسمية، ما أعدلك؟! إن عدل الإسلام المبرأ من الإفراط والتفريط قد علِمَ بك.

أيتها النسبة القاسمية، ما أفضلك؟! إن فيض الغيوب شاهد ومشهود عليك من الغيب الخفي.

أيتها النسبة القاسمية، ما أرشدك؟! إن الإرشاد والهدى قد تمكنا من القلوب بفضلك بتعديل الفهوم.

أيتها النسبة القاسمية، ما أبصرك؟! إن التفكير في العاقبة قد تبوأ في القلوب بفضلك بالبصر المفهوم.

أيتها النسبة القاسمية، بك ذكاء الأفهام، فهم خلق الله تعالى بك تعديل الفهوم.

أيتها النسبة القاسمية الجامعة بين الأخلاق وشؤون الألفة، فهي الرحمة والنور في هذه الدار الظالمة.

نسبة العلم والحلم، نسبة العشق والأحوال، نسبة الفقه، بداخلها نسبة أسرار العلوم.

نسبة العلم والحياء، ونسبة الألطاف والغنى، نسبة الصدق والوفاء، نسبة عون المظلوم.

نسبة الصبر والتوكل ودرع الصدق والعفاف، نسبة الرحم والصلة، ونسبة كسب المعدوم.

نسبة الجود والسخاء،نسبة الإحسان والعطاء، نسبة حرمان الدواء،وراء الأمل المحروم.

نسبة عظمة الأخيار بحب الأخيار، نسبة الشفقة والإكرام،على سبيل العموم.

الانكسار والأدب، والعجز والتواضع لله، النسبة المبرأة من الكبر المذموم.

جاءت النسبة الجامعة بجميع أنواع الكمال، منك، قاسم، والعلوم المقسومة من باب القاسم.

نسبتك نسبة مزيجة بالدين والملك، بك تجلى معنى الكلام المعصوم.

اليوم ملآن بجهادك، والليل معمور بالرياضة،

وقوتك منظومة بهذا الظاهر والباطن.

تكسر الكفر في النهار، وتقهر النفس في الليل، كله مضموم بالآفاق وبالأنفس.

جميع الصفات الموجودة أضفت النسبة، وبهذا السبب صارت النسبة القاسمية جامعة المفهوم.

والنسبة القاسمية تجمع بين هذه الصفات، فهذه هي المدرسة الفكرية في دارالعلوم هذه.

فدين الإسلام الحكيم ملون.. وعليه بنى قاسم العلوم دارالعلوم.

وحين نضع في البال فكرة مدرسة ديوبند هذه الجامعة الوسط أو مذهبها يتجلى لنا أن مؤسس دارالعلوم استهدف من وراء هذا المذهب الوسط، ضمَّ جميع المذاهب الهندية الحقة بعضها ببعض في حين كان التشتت الجماعي يشكل جزءًا لايتجزأ من المذاهب في البلاد. وكانت المذاهب وأصحابها كلهم -إلا من شاء الله- يقاتل بعضهم بعضًا من جراء هذا التفاوت المذهبي. فكان الفقيه يخالف الصوفي، ويعتبر الصوفي الفقيهَ في حرمان من الباطن، ومكبًا على الظاهر، بعيدًا عن البصر وجافًا خشنًا. ويعتبر الفقيه الصوفيَّ أسيرًا للخيالات التي لا أساس لها، وعبدًا للأوهام العقلية باسم الباطن، متورطًا في الدوامة العقلية، منحرفًا عن عقائد السلف. وكان المحدث معارضًا للمتكلم، والمتكلم يعارض المحدث في عصره. ويعتبر المحدث المتكلمَ أسيرًا لعقله، هيابًا من زمانه، منحرفًا عن السلف والسلفية، حول الدين فلسفة يونانية باسم الكلام، في حرمان من عقائد السلف؛ بل محرفًا للدين، ويصف المتكلم المحدث حافظًا لحرف النصوص، هائمًا في التعبيرات اللفظية، عبدًا للظاهر، جاهلًا بالحقائق، في غفلة تامة عن الأصول الكلية، عاجزًا عن التعبيرات العقلية للدين، جاهلًا باللغة ونحو ذلك.

والحاصل أن الفروق المذهبية تحولت إلى صراعات مذهبية، وتحول تفاوت المذهب إلى النزاع المذهبي، واتخذ التفاوت المشربي التحزب، فانتشرت في الأمة جراثيم التشتت و الانتشار والتمزق. وكل منهم مصر على إبطال غيره؛ بل على تكفيره، وأما الإمام النانوتوي ومدرسته دارالعلوم فقد قدما مذهبها الجامع بين الحديث والتفسير والفقه وأصوله، والكلام والتصوف والحقيقة والمعرفة والعلوم والمقامات الدينية بشتى صورها وألوانها في زهرية - قد تفتحت الأزهار كلها في حقولها مناسبةً لمقامها - بصورة شاملة هيأت لجميع هذه الطبقات المذهبية فرصة الاجتماع على نقطة واحدة. فهذه الفكرة التي تقوم عليها دارالعلوم جاءت جامعةً لأهل الحق قامعةً لأهل الباطل. والسبب الرئيس وراء ذلك أن مذهب دارالعلوم -حسب توجيهاته- يرجع إلى مقومين أساسيين: الفقه والكلام،

وبعبارة أخصر مذهب علمي، والآخر تربوي وثقافي وبعبارة أخصر منه: مذهب أخلاقي. فهذا المذهب العلمي الأخلاقي -لوسطيته- يجمع بين لب المذاهب كلها، فكأنه خلاصة خصائص المذاهب جميعًا. فبالإمكان أن يجتمع عليه جميع الطبقات الأخلاقية، ويتحول مركز التجمع لها كلها.

فأما المذهب العلمي فمرده إلى الشاه ولي الله الدهلوي، الذي ألقي عليه من الله تعالى هذا المذهب العلمي، وسبق تفصيله. فهو – لكمال اعتداله وشموله – مركز طبيعي لجميع الطبقات العلمية، فلو أن أصحاب المذاهب كلها أنصفوا لهان لهم أن يجتمعوا عليه جميعًا، أو يعتبروه مرجعًا لهم على أقل تقدير فيتقربوا إليه. فأما -مثلًا- المذاهب الفقهية المختلفة لفقهاء الأمة ومجتهديها فهي ناشئة عن ظاهر التعارض بين الأحاديث واختلافها وقائمة على حديث من الأحاديث.

وأول مبادئ المذهب الفقهي لدارالعلوم أن الإعمال أولى من الإهمال، فالعاقل لايدع أخس الأشياء في الدنيا يذهب سدىً، فضلًا أن يدع أفضلها. وأعلى الأشياء الغالية هو كلام النبوة وكلام الله تعالى، فاعتبار ناحية من نواحيه عبثًا وإلغاؤها عن العمل ينافي دون شك طبيعة هذا المذهب. ومن الطبيعي أنهم يعمدون بين الأحاديث المختلفة إلى الحديث النبوي الذي هو أوفق لمراد الشارع وأقرب إليه، فيجعلونه اقتداءً بالإمام أبي حنيفة – أصل المذهب، ويحملون سائر الأحاديث كلها على وجوهها المناسبة. فلايبقى حديث من الأحاديث خارجًا عن العمل والامتثال، وبعبارة أخرى يرون الجمع بين الروايات أصلًا، فينشأ عنه باب إلى التطبيق والتوفيق. فيدخلون الروايات المختلفة في نطاق العمل والامتثال بتوجيه معقول ومنقول من غير الإعراض عنها بعد إخضاعها لأصل الرواية. ولايلغونها ولا يتركونها، وذلك مخافة أن تصير ناحية من نواحي كلام الرسول لاغيةً غير معمول بها حتى الحديث المرسل لايلغونه؛ بل يقولون بحجيته. فلاتبقى ناحية من النواحي الناشئة عن تفقه أئمة الهداية خارجةً عن المذهب، ولنا أن نعبر عنه بقولنا: إن هذا المذهب يجمع في الجملة بين المراتب الفقهية لجيمع الأئمة، وغاية ما فيه من الفرق هو ما بين الراجح و المرجوح، أو الأفضل والمفضول أو الأصل والفرع أو العزيمة والرخصة. اللّٰهم إلا أنه قد يتمثل الاختلاف في الجواز وعدمه، وهو قليل. وهذا لايخل بشمول المذهب الحنفي وحقانية المذاهب الفقهية الأخرى، سواء كان النصان متعارضين أو تعارضت ناحيتان لنص واحد تعارض فقهيًّا. فالاختلاف يتسرب إلى الفروع الاجتهادية، دون أن يؤدي ذلك

إلى الخلاف والنزاع، حتى يوهم الإعرض عن مذهب فقهـي أو اجتنابـه. فتـستمر حقانيـة وعظمـة أئمـة الاجتهاد أيضًا بما يناسبهم، ولا يختل صدق وعظمة وتعظيم واحترام مذاهبهم الفقهية أيضًا. ثم إن هذا الاختلاف ليس اختلاف الحق والباطل، حتى يؤدي إلى الصراع؛ بل اختلاف الخطأ والصواب، ولاتخلو ناحية من نواحيه من الأجر والمثوبة. وغير خافٍ أن اجتهادات المذاهب الفقهية والفقهاء كلها حين تجتمع على نقطة واحدة، وتستقيم على مواضعها حسب درجاتها ومراتبها، فإنه يسد الباب إلى النزاع والجدال؛ بل ينشأ عنه قاسم مشترك يجمع بينها. وبالتالي تعود هذه المذاهب الفقهية ومراتبها موثوقًا بها؛ بل تأرز إلى مركز واحد، مما يدل صراحةً على شمول هذا المذهب.

وأما الفرق الحقة الإسلامية التي تتحد في الأصول والمباني، وتختلف فيما بينها في معاني العقائد الفرعية بمقتضى القواعد الشرعية، فلايخفى أنها أيضًا ترجع إلى النظر والفكر الاجتهادي، الذي يؤدي إلى نشأة أفكار متفاوتة بتفاوت الاجتهاد، تتمثل في العقائد، وتُعتَبَر فرقًا، وليست فرقًا في الواقع مادامت الأصول والمباني كلها واحدةً. وأما مذهب الشاه رحمه الله فمادام جامعًا للنص والاجتهاد، فإن ناحيةً اجتهاديةً من هذه العقائد الفرعية – ما دامت لاتعارض المبادئ الأساسية الشرعية، والقواعد الأساسية – لاتخرج عن نطاق القبول، اللّٰهم إلا أن هذه الناحية لاترد؛ بل توضع الموضع الفرعي والضمني بدلًا من وضعها في الموضع الأساسي. فلايؤدي ذلك إلى ترك فرقة حقانية أو شيء من مسائلها الاعتقادية بصورة كلية – مادامت لاتخرج عن نطاق هذا المذهب بتأويل بسيط، وإنما الاختلاف في كونها مقصدًا أو غيره – في حين تكون من محتملات نص من النصوص أو في نطاق فروع مبدأ من المبادئ الشرعية. فلاتفارق هذه الفرق الإسلامية مفارقةً كليةً الفرقةَ الأساسيةَ الحقةَ في هذا المذهب الجامع الشامل؛ بل تكون أقرب إليها. وإنما يخرج منها الفرق الباطلة، التي لاترغب في الدخول في نطاق الحق. وأما الطبقات التي تعرضت لشكوكها وشبهاتها من جراء سعيها العقلي، فتبدو مفارقةً لمذهب الجمهور أو تبدي آراءها في الأمور الغيبية وتسعى وزن الغيب بميزان من الشاهد فبما أن هذا المذهب الولي اللاهي جامع بين العقل والنقل، والمعقول والمحسوس، ويعرض جميع المعتقدات والمبادئ الكلية في لباس من البرهان العقلي والمصالح الفطرية، مما يدفع الشبهات العقلية، ويحمل تسليةً وعزاءً عقليًا للطبقات المتورطة في التشابكات العقلية، فلامجال لخروج هذه

الطبقات وهروبها من المذهب الحق أصلًا شريطة أن يصغوا آذانهم لهذه البراهين العقلية على الأمور الشرعية، ويحضروا بقلوب سليمة. فالتجارب شاهدة على أن أمثال هؤلاء العقلانيين لم يروا هذا المذهب الشرعي متمثلًا في ألبسة من العقل وثياب من الفكر الصحيح إلا انقشعت شبهاتهم أيضًا. واعترفوا من صميم قلوبهم بجهلهم أو إعراضهم واقتربوا إلى هذا المذهب، أو صاروا حماةً وناصرين له حتى صاروا أعضاء له. ولم يبقَ بعد ذلك إلا الأوساط السياسية؛ التي تعودت على اعتبار الدين والوطن مختلفًا بعضهما من بعضٍ، ويخافون دائمًا على ضياع أهدافهم السياسية باسم الدين، فإن هذا المذهب الوسط قد عرض المبادئ الأساسية في السياسة الشرعية مستفيدًا من الكتاب والسنة، التي تشكل ردًا على هذه الأخطار؛ بل هو الطريق الطبيعي للوصول إلى الأهداف السياسية.

وعلى كل، فإن نطاق هذا المذهب الوسط يتسع في مبادئه ويجمع ويحوي حتى لايسع الطبقات الاجتهادية أن تفارقه، ولايسع الطبقات الكلامية والأوساط العقلية والفلسفية أن تنفصم عنه، في حين كانت مسلماتها كلها مضمومةً إليه، ولايعني ذلك إلا أن المذهب الولي اللاهي قد استوعب في مبادئه جميع الفرق والأوساط والطبقات، ويحمل من كفاءات المركزية كلها، التي لاتدع شيئًا من الطبقات العلمية تخرج من نطاقه. وكلما أنصف الناس فيه وحرصوا على الخضوع للحق، فإنه يوفر لهم جميعًا وصفة مقنعة، ويشكل لهم مركزًا جامعًا شاملًا لعناياتهم. ويستأصل جميع النزاعات والتفرقة القومية من جذورها. ويضم كتاب «حجة الله البالغة» مبحثًا خاصًا بالسياسات و العمرانيات والمدنيات والمعاشرة، ولقبه الشاه بالارتفاقات. وشرح فيه المباحث الشرعية للشعب السياسية و النقاط الشرعية بالأدلة الفطرية، حيث لاتخرج حتى نظرية منطقية سياسية اليوم من نطاقه. فكان هذا المذهب حتى للطبقات السياسية مذهبًا جامعًا شاملًا مركزيًا، يمكن أن تجتمع عليه هذه الأوساط، شريطة أن ينظروا فيه ويحاولوا استيعابه وتفهمه.

ثم إن المقوم الأساسي الثاني لمذهب دار العلوم هذا هو تربية الأخلاق وتزكية النفوس، التي تتولد من الرياضات والمجاهدات وسلاسل التصوف. وفي ظلال هذا المذهب انضم عظماء ديوبند في معظم الأحوال إلى سلسلة الجشتية كما انتمى كثير منهم إلى سلسلة النقشبندية. وأكبر مرجع لسلسلة النقشبندية ومنتهاها هو المجاهد الكبير السيد أحمد الشهيد البريلوي رحمه الله. وملجأ العائلة الجشتية ومأواها هو حضرة الشاه عبد الرحيم الولايتي رحمه الله،

وهما عصريان، وأفاضا ونفعا في عهد واحد على وجه شامل، فلم تشتهر في هذه البلاد غير هاتين السلسلتين أكثر. والجشتية يغلب فيها لون القلندرية، ومن خاصة صفاتها الضجة والتحمس، والوجد والطرب ونحو ذلك، فيسودهم في الغالب حال وقال من الصيحة والصراخ، فكان عنوان حياتهم الحرق والاحتراق وشق الجيوب. وأما النقشبندية فيغلب عليها الإخفاء والتستر والسكوت والصمت والضبط والتحمل، فكانوا خير ماصدق لهذا البيت الفارسي الذي معناه:

«إن النقشبندية قادة رائعون للقافلة حيث يسيرون بأصحابهم في خفاء إلى عتبة الله تعالى».

والسلسلتان متضادتان فيما يبدو، وإن كان هدفهما ومقصودهما واحدًا، ولكن نشأ وجه من التأثير والتأثر من الله تعالى في زعمائهما أمثال السيد أحمد الشهيد، وحضرة الشاه عبد الرحيم. وتجلت صورة من تبادل الكيفيات في نسب الجانبين حسب مصطلح الصوفية، والقصة طويلة، حاصلها أن السيد أحمد الشهيد رحمه الله كان يعلوه كيفية من البسط والانبساط والفرح، وأما الشاه عبد الرحيم فكان يغلبه كيفية من الخوف والخشية والاضطراب والحزن والتفكير، والبكاء.

واجتمع الرجلان – خلال رحلة السيد أحمد الجهادية– في مسجد «بوبني» فالتقيا في حجرة مغلقة عن طريق التجاذب، فلما خرجا منها كان وجه السيد أحمد باكيًا، وأما وجه الشاه عبد الرحيم فكان ضاحكًا باسمًا، أي أثرت نسبة كل واحد منهما في الآخر، يمكننا أن نعبر عنه بأن الجشتية و النقشبندية امتزجتا واختلطتا بعضهما ببعض، ووصلت آثار الشيخين وكيفياتهما الطاهرة من بعضهما إلى بعض، واختلطت واجتمعت، فبرزت في نقشبندية السيد أحمد بعض آثار الضجة والبكاء و العويل والصراخ، وغلب على جشتية الشاه عبد الرحيم الضبط والصمت، ووقار اتباع السنة و عزه حسب الآداب الشرعية، فتجلت جشتية الشاه عبد الرحيم في هذه المزيجة من النقشبندية في أجل تلامذته وهو حضرة ميانجي نور محمد الجهنجهانوي قدس سره، الذي غلبه الحرقةُ الباطنية بجانب لون الأدب الشرعي واتباع السنة النبوية. وقد عبر عنها حضرة ميانجي بقوله – كما سمعته مراتٍ من عمي المحترم مولانا حبيب الرحمن رحمه الله سادس رؤساء دارالعلوم/ ديوبند–: «لقد طبخ هذا الفقير قدرًا لم تُطبخ قبل قرن، ولن تطبخ بعد قرن من الزمان». فكان عمي المحترم يقول على ذلك: «كانت فكرة عامة أهل الله العارفين لرموز عهد نشأة دارالعلوم أن قدر حضرة ميانجي ذات القرن هذه هي دارالعلوم/ديوبند، التي تجمع إلى الشريعة

الطريقةَ، وإلى احتراق النفس التأدبَ، وإلى الأحوال والكيفيات اتباعَ السنة. وليس أصحاب اللوعة والاحتراق هؤلاء مجرد نفوسٍ محترقة؛ بل هم عرفاء الأدب، يغلب عليهم –رغم الحرقة والاحتراق الباطني– أدب الشريعة واتباع السنة. فالاحتراق الباطني من آثار الجشتية، ومعرفة الأدب والجدة في اتباع السنة من آثار النقشبندية، ومن ثم تمثلت هذه السلسلة– التي انتقلت مرورًا بحضرة ميانجي والحاج إمداد الله رحمهما الله إلى الإمام محمد قاسم النانوتوي، والعلامة رشيد أحمد الكنكوهي– في دارالعلوم هذه بفيوض من هؤلاء الأسلاف، ولِنُطلِقْ عليها «مجموع نِسَب زعماء السلسلتين»، تجلى شأنهم فيما قاله الشاعر الفارسي ما معناه:

«في إحدى يديه كأس الشريعة، وفي الأخرى سندان العشق ... فليس من شأن كل واحد أن يلعب بالكأس والسندان معًا».

وقول العظماء بأن المراد بهذه القدر هي دارالعلوم يتأيد بقول الإمام محمد قاسم النانوتوي أكثر وتزداد حقيقته قوةً، مما سمعته من هؤلاء العظماء الراحلين عامةً ومن عمي المحترم خاصةً بأن الإمام النانوتوي قال: «أريت صورة هذه المدرسة في عالم المثال كأنها قدر معلقة». وعبر بعضهم عن هذه القدر المعلقة بالتوكل، بأن قوام هذه المدرسة لابد أنه القدر – وهي ظرف الطعام–، ولكنها معلقة، وهو من شأن التوكل وصفاته بأن النتيجة تتبع – بعد ممارسة الأسباب– للمشيئة الإلهية، و لايمكن الجزم واليقين بظهور النتيجة بمجرد اختيار الأسباب؛ بل تتوقف على المشيئة، وظهور المدرسة في صورة القدر المعلقة فيه تنبيه على أنه يجب النظر في التوكل والمدد الإلهي في هذه المدرسة أكثر من الأسباب الظاهرة. وذلك باجتناب الموارد المستقلة لهذه المدرسة أو اللجوء إلى المواعيد المحكمة من أصحاب المال والثراء، والحذر من الثقة بهم، وقد عنيت المبادئ الثمانية التي وضعها الإمام النانوتوي بهذا الجانب أيما عناية، وقد سبق ذكرها فيما مضى. وبعد قبول هذا التوجيه أيضًا يبدو معناها ومذهبها ألصق بهذه الجامعية والشمول في ضوء الأحداث السابقة، مما يجمع بين الشريعة والطريقة واللوعة والاحتراق والأدب جمعًا يستهوي القلوب. فكأن حاصل مقال حضرة ميانجي أن الجامعية المذهبية التي تلاشت في الملة الهندية منذ قرن من الزمان، وكانت كل فئة وطبقة متناحرةً بعضها مع بعض لتلاشي هذه الجامعية و الشمول، وللتفرد والتحزب المذهبي، و خاصةً اعتبار الشريعة والطريقة سبيلين مختلفتين، ووضع مذهبين منفردين بعضهما عن بعض، قد زالت هذه

الاثنينية والازدواجية على يد هذا العبد الحقير. وقد أقبل اليوم بامتزاج الجشتية والنقشبندية بعضهما ببعض عهدُ التحمس المصحوب باليقظة، وعهد الضجة المصحوبة بالإلهام ونداء الغيب، وقد تجهزت قدره، فلايوزع في مشارق هذه البلاد ومغاربها إلا الطعام المعد فيها، ومن هنا كان هؤلاء الأسلاف يبايعون - رغم غلبة الجشتية التي هي أصلهم عليهم- على العوائل الأربع وخاصة النقشبندية. وكانوا يقومون بالتربية على السلاسل الأربع، فكم من الزهاد الذين لم يتقدموا في الجشتية ربوهم على طريقة النقشبندية، وهذا مولانا حبيب الرحمن يتحدث عن نفسه قائلًا: «بايعت الشيخ الكنكوهي على الجشتية فلم أتقدم فيها، فقال الشيخ الكنكوهي: حظك في النقشبندية، دون الجشتية، ثم سار به على النقشبندية نفسها، فتقدم وارتقى، وكتب الله تعالى النجاح والوصول فيها.

ونظرًا إلى هذه الحالة، يسعنا القول بأن مذهب دارالعلوم جمع إلى السلاسل العلمية والسلاسل الفقهية السلاسلَ الصوفية أيضًا، فلايخرج عنه من صدق في النقشبندية والسهروردية و القادرية.

ولما وقع هذا النقش الراسخ لهذا المذهب الجامع على الشيخ قاسم بفيوض شيخه شيخ الطريقة الحاج إمداد الله، وصار لسانًا لشيخه بشهادة منه، كما كان «شمس تبريز» لسانًا للعارف الرومي، ظلت هذه الجامعية ماثلةً بين عينيه دائمًا، وظهرت ظهورًا عامًا في دارالعلوم، وبالتالي أصحبت مذهبَ دارالعلوم. مرجع أحدهما الشاه ولي الله ومرجع الآخر الحاج إمداد الله رحمه الله – خليفة حضرة الجهنجهانوي رحمه الله-، فتكونت منه الحقيقة القاسمية، وحيث كان مدارًا للحديث في دارالعلوم، مرجعًا للاستناد، فكان يعني ذلك بكل وضوح ما ذكرناه آنفًا، وهو أن فكرة الإمام قاسم النانوتوي وفكرة دارالعلوم عبارة عن وحدة السلاسل وأهل السلاسل كلهم. وكانوا ينظرون في المذهب العلمي إلى استيعاب جميع السلاسل والحلقات، فلايبقى الصوفي مباينًا للمتكلم، ولا المحدث والفقيه، ولا الأصولي والعارف؛ بل يصبحوا جميعًا واحدًا، وتمتزج وتختلط علومهم جميعًا بعضها ببعض، فتتمثل في مضمون واحد.

وفي جانب آخر كان الهدف جمع سلاسل الأولياء في السلاسل التربوية، فالجشتي هو النقشبندي، والنقشبندي أو القادري أو السهروردي هو الجشتي أيضًا، فتبرز السلاسل نفسها من أهل السلاسل بصورة طبيعية، فلانعدو الحق لو قلنا: إن دار العلوم تشكل نقطةً لوحدة الأمة. وهذه هي الفكرة المركزية التي تشكل أمانةً في قلب الإمام

قاسم النانوتوي، وكان يود نشرها من على منصة هذه المدرسة، فهي في عين عامة أهل النظر مجرد مدرسة، وأما النانوتوي رحمه الله فكان لايعتبرها مجرد مدرسة تعليمية؛ بل مدرسةً فكريةً. فكان يسعى جاهدًا منذ أول أمرها لتوسعتها. ومن ثم تجلى ويتجلى لون الجامعية هذا في كل من تربى في دارالعلوم سواء كانوا صغارًا أو كبارًا على درجات متفاوتة على أنه قدر جامع بينهم، فإنهم جمعوا إلى التدريس والإفادة الرياضةَ والمجاهدةَ، وإلى إسناد الحديث الخلافةَ الباطنيةَ، وإلى ثورة الأحوالِ أدبَ القال، وإلى التحرق الباطني الأدبَ المنعش للروح، وإلى سلاسل الشريعة سلاسلَ الطريقة على حد سواء. فحيث تطرقت الكليرية الصابرية والقدوسية الكنكوهية عن طريق الجشتية، كذلك رسخت مجددية اتباع السنة وروح إعلاء كلمة الله للسيد الشهيد رحمه الله، فلم يتصف أبناء هذه المدرسة بالزهد الجاف، فتبرز الخشونة فيهم، ولا اللين المحض، فيُتَّهموا بالمداهنة، ولا غض النظر عن المنكرات حتى يُرموا بالخوف والهيبة، ولا الإنكار غير البصير، حتى يوجه إليهم تهمة الخشونة؛ بل جمعوا إلى الصلابة في الدينِ الشفقةَ على الخلق، وإلى التقشف الملاطفةَ والمداراة، كلها مع بعض. وهي الصورة الحقيقية لـ(وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا) [الإسراء:١١٠]، والتعبير الحق عن القدر ذات القرن الواحد، وبالتالي في هذه الجماعة الجامعة الشاملة سلاسل الإصلاح والتربية العامة على المستوى العالم وحالفها التوفيق والنجاح، سواء كانت سلسلة التعليم أو الدعوة والتبليغ أو تربية الخلق أو إصلاح الأمة.

وتشمل الفكرة المركزية لهذا المذهب الجامع- علاوةً على العلوم والفنون- على مزيد من الجامعية الطبقية والاجتماعية التي ظلت دارالعلوم تؤكد توحيد صفوف المسلمين، وتوحيد الأمة بناءً على وحدة الكلمة، واحترزت دائما عن التحزب الداخلي، وهي في الواقع الروح الحقيقة لهذه الفكرة، التي لم تقضِ على تفرق الأمة في هذا العصر، الذي سُلِّط عليها بعد حرمانها من الحكم والملك بصورة مهلكة؛ بل أعانت على خلق صورة لجمع الأمة على نقطة وفكرة، كما تجلت الفروق بين مراتب هذه الطبقات ودرجاتها بجانب وحدة الطبقات، وبالتالي تهيأت الفرصة لاجتماع عامة الناس من جراء اجتماع خاصتهم بصورة تلقائية. وأما من كان يطلب انتشار الأمة وتمزقها لخدمة أهدافهم الخاصة، واعتبروا الدنو إلى قصر الاجتماع والاتفاق هذا من المآثم وجعلوا نصب أعينهم الفرار منه، ولم يجدوا فرصةً لرؤية الأفكار فضلًا عن رؤية المشاهدات، فهل يخل ذلك بجامعية ومنطقية وعموم

هذا المذهب؟ فليقلقوا على أنفسهم، (وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [البقرة:١٣٧].

وحاصل القول أنه سواء كانت تلك القدر ذات القرن الواحد أو القدر المعلقة كلتاهما ترجعان إلى كشوفات هؤلاء العظماء والسلف، وهي من الأمور الغيبية، وليست نتيجة عقل وتفكير أو سعي ذهني، وغير خافٍ أن مصداق هذه القدور مادامت هي دارالعلوم، فالنتيجة واضحة، وهي أن علاقة حقيقة هذه المؤسسة بالقوى الغيبية والبشارات والإشارت الغيبية، لا محض التشاور الرسمي؛ بل التشاور هو الآخر قائم على هذه الإشارات ومرتب عليها، فهل يسعنا أن نسمي هذه المؤسسة إلا بالمدرسة الإلهامية. وحيث إن القوة التي تدير هذه المؤسسة قوة غيبية فالتي تخلق لها طوق النجاة من المشاكل والعقبات التي تواجهها من حين لآخر إلى يومنا هذا هي القوة الغيبية التي أنشأتها في أول أمرها في عالم المشاهدة هذا. وتجلى تأثيرها لدرجة أن خدم دارالعلوم الضعفاء أمثالنا نشاهدها في كل حين، وشاهدناها من قبلُ، ومن تأثير هذه القوة أن نشاطاتها مستمرة على المستوى العالمي توكلًا على الله من غير تهيئة أسباب لها، وإنما على العاملين فيها حسن النية والإخلاص، لا إدارتها.

وكذلك ما رآه الإمام محمد قاسم في المنام حيث قال: «أنا واقف على سطح بيت الله، وتنبع الأنهار من أصابع رجلي، وتنتشر في أكناف العالم». وقد أول هذه الرؤيا الصالحون في ذلك العصر أنه يجري فيض علوم النبوة على يده في العالم كله. وبعد أن نشأت دارالعلوم قال الصالحون هؤلاء أنفسهم: قد تحقق تأويل هذه الرؤيا في دار العلوم، أو ما رآه مولانا رفيع الدين النقشبندي المهاجر المدني وثاني رؤساء دارالعلوم في منامه أنه أعطي مفاتيح العلوم الدينية، فأولوها أنها دارالعلوم، فكل ذلك في الواقع تعبير عن هذه القدر، التي أريها حضرة الجهنجهانوي والإمام النانوتوي رحمهما الله. ويتبين به أن دار العلوم – بناحيتيها: حقيقتها ومعناها، وهيئتها و صورتها- مظهر ومصداق لهذه البشارات الغيبية. والقوى الغيبية هي التي تعمل في تشكليها و تكوينها. وعلى كل، فإن فكرة هذه المؤسسة – التي تقوم عليها بنية دارالعلوم المعنوية - تشكل علاوةً على الصفات العلمية والأخلاقية والعقلية والسياسية، صفة الجامعية والشمول والاجتماعية والعدل والوسطية مقوماتٍ لها. ومن هنا كما يقول عظماء الوقت: تَعدُّ طبقة أهل الله تعالى هذه المدرسة من حيث الجماعة مجددة، قامت بواجب تجديد جميع شعب الدين بفكرها ومعرفة طبائع الأفراد، وجاءت مجموعةً لنسب أولياء الله في عصرها.

هو الذي خلقكم من نفس واحدة

بقلم: الأستاذ/ يوسف مصطفى الأمير

إذا أنعمنا النظر في كنوز الفرقان وجواهر الأحاديث النبوية يتبين لنا بوضوح أنهما يدعوان إلى أخوةٍ فطريةٍ إنسانيةٍ عامةٍ، وأخوةٍ عقائديةٍ خاصةٍ.

فالأخوة الشاملة لأبناء الإنسانية جمعاء، تتجلى شمسها الساطعة في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وفي قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ الآية.

فالله – جل شأنه – أراد أن يوجه الإنسانية إلى أصلها الأصيل ونبعها الوحيد التي صدرت عنه. حيث كونت من جوهرة الإبداع متحدةً وهبطت من عالمها الرفيع غير منفصلة. وجبلت طينة أقفاصها من معدن متحد العناصر لاتباين ولا تفاضل ولا تمايز في ذراته. وفي الآية الثانية يذكر عباده بأن طريق تناسلهم واحد، فهم جميعًا مولودون بطريقةٍ واضحة السبيل لا تغاير ولا تضاد فيها؛ كيلا يفتخر بعضهم على بعض بالعظامية والأصل والفصل التي ليست جديرةً بالإجلال والإكبار ويتركون التنافس في العقول المكتسبة من تجارب الحياة والأعمال الصالحة فيختل ميزان الحق لفقدان العدالة والمساواة.

وفي التنديد بالوحدة الإنسانية في الفرقان دعوة إلى التعاطف والتراحم والتعاون لبناء صرح السعادة والهناء في عالم الأجرام والأجسام.

وفي الحديث الشريف «الإنسان أخو الإنسان أحب أم كره» فالإنسان أخو الإنسان بالفطرة سواء رضي عن هذه الأخوة أم سخط، وفي هذا توجيه لتنبعث الإنسانية من وراء عواطفها الرحيمة، وتشعر بشعور الوحدة والإخاء والمودة والوئام فلا تتخذ من اختلافها في الصور ميدانًا فسيحًا للتنازع والانتقام وتمزيق عرى الوحدة وهدم هذا المجتمع الحي الذي أمر الله – تعالى – أن تجري العدالة فيه مجراها الطبيعي على أكمل صورة ليبقى نقيًا من الأحقاد والضغائن التي لم تولد من معين الخير والفضيلة ولم تؤيد بالأدلة العقلية النافذة إلى صميم مصالح أبناء الجبلة والطينة الواحدة. وقد حمل المسلمون في فجر الإسلام وضحاه رسالة نبيهم على أكمل وجه وأجمل صورة عرفها تاريخ العالم فكانوا بلسم الإنسانية الشافي في شتى دنياها يداوون الجريح ويطعمون الجائع ويفكون العاني ويكسون العاري بدون أن يفرقوا بين جنس وجنس وملة وملة سواء عندهم الأبيض والأسود والأحمر والأصفر والغربي والشرقي. فلاعرقية ولا عنصرية ولا قومية أو قبلية، وإن ما نقرأه في صفحات التاريخ

من آيات النبل والمعاملات السامية التي إن دلت على شيء فإنما تدل على مقدار تعلقهم بالوحدة الإنسانية التي قررها دستورهم الخالد.

فهذا علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه – زوج البتول وابن عم الرسول يقف مع خصم يهودي له أمام الخليفة عمر بن الخطاب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فيناديه عمر بلغة النزاهة والعدالة:

ساو خصمك يا أبا الحسن، وينادى اليهودي باسمه الخاص بدون أن يكنيه. والكنية في عرف العرب أداة من أدوات التعظيم والاحترام. فيتميز غيظًا ويظهر آثار الألم على صفحات وجهه. فتنكشف إلى الخليفة عمر. هذا بعد أن صدر الحكم بجانب خصمه.

وما إن انتهت الخصومة حتى بادره بالسؤال مستوضحًا عن مصدر الألم الذي ظهر أثره على ملامحه فيجيب مندهًا بخطيئة عمرو أنه لم يقم العدالة على الوجه الأكمل؛ إذ أنه عظمه في مقام الخصومة ولم يعظم نداء وكأنه يشير إلى ما تضمنته الآية من الوحدة في أصل الخلقة وأنه لافضل لمسلم على غيره لولا هبة الله وهدايته. وإن العدالة الإلهية تقضي بالمساواة في الأحكام وعدم التمييز والمحاباة في أي ناحية من النواحي وليست هذه القصة وحيدةً من نوعها. فالتاريخ مليء بأمثالها. وقد فتح المسلمون الدنيا قطرًا قطرًا ولم تكن لديهم أهداف استعمارية ولا أطماع سياسية جشعة؛ بل كانت ضالتهم المنشودة نشر التعاليم الإلهية في أرجاء العالم وهداية الناس كافةً إلى عبادة الخالق متأثرين بمؤثرات الرحمة والإخاء ساعين لوحدتها عن طريق العقائد السماوية والمثالية الكاملة.

وقد شهد بهذه الحقيقة النيرة نفر غير قليل من جهابذة الفكر ومؤرخي الغرب الذين لم تطغ عليهم العصبية الهوجاء فتعمى أبصارهم عن نور الحق. فهذا جوستوب المؤرخ الشهير يقول: «ما عرف التاريخ فاتحًا أعدل من العرب».

أما الوحدةالخاصة:

فهي وحدة المؤمنين في العقيدة والعبادة والميول والأهداف وخدمتهم في جميع ما يتصل الإنسان بالحياة من شعور وإحساس وتتصل الحياة به.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وقال: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَانًا﴾ الآية.

وقال الرسول ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى» ولقد لامست هذه التعاليم قلوب المؤمنين وتخللت سويداءها حتى أصبحت جزءًا منها لا يتجزأ وعنصرًا من عناصر المؤمنين لا يفارقهم في السراء والضراء ولا في ا لسر والجهر أو الوحدة والجماعة فهم سلسلة متصلة الحلقات وجسم سليم من الأمراض والأوباء إذا اهتز وتر من أوتاره اهتزت لذلك جميع الأوتار إن ألمًا فألم وإن سرورًا فسرور وإن تألم شريان من شرايينه اضطرب جميعه وسرى ذلك الألم إلى جميع جوانبه فهم حقًا جسم واحد كما وصفهم رسول

الرحمة متساوون في الحقوق والوجبات لا فضل لكبير على صغير إلا بالتقوى.

وإنـه – وأيـم الحـق – فتأخـذك هـزة الطـرب والإعجـاب حينما تـسمع أن أبـا ذرالغفـاري ذلـك العربي الأصيل الثري الوجيه في قبيلته تثور براكين الغضب نفسه ذات ليلة على بلال الحبشي فيعيره بأمه قائلًا: يا ابن الحبشية. ويسمع هذا الحديث رسول الله فيصعـد المنبر ويقول قولتـه الفاصلة – معرضًا بـأبي ذر وبالحميـة الجاهليـة – «طفـى الـصاع طفـى الصاع لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

فينـتفض أبـو ذر مـن غفلتـه مـستغفرًا لذنبـه وينهض قائمًا ثم يطأطئ رأسه بعد أن تبخرت آثار الكبرياء من نفسه ويضع هامته على الأرض بكل فخار وراحة ضمير وقد اغرورقت عيناه بالدمع ثم يتمتم قائلًا: «لا أرفع هذا الرأس عن الأرض حتى تطأها قدم بلال».

وإنك لتلمس معي الوحدة الكاملة، وأنت تتلو سفر التاريخ وكيف كان الأنصار يقاسمون إخوانهم المهاجرين شطر ما يملكون، وكثيرًا ما يؤثرونهم على أنفسهم وينامون على الطوى قريري العين جزلين فرحين، وقد شهد بذلك الخلق الرفيع القرآن الكريم نفسه حيث قال تعالى في بعضهم: ﴿وَيُـؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

وهـذا علي بـن أبي طالـب يجـود بنفسه وذلـك منتهى التضحية والكرم فينام على فراش الرسول الأعظم ليلة الهجرة، وهو يعلم أن فتيان قريش قد تجمعـت حـول المنـزل لتلقـى رسـول الله بـسهامها ونبالها يقدم على هذا، والسرور يملأ قلبه؛ لأنه يعلم أن رسول الله قطب رحى الإنسانية التي تدور عليه سعادتها ووحدتها.

هـذا الخليفـة الثالـث عـثمان بـن عفـان يتـبرع لفقراء المدينة بقافلة تحضره من دمشق عليها من أنـواع الحبـوب مـا يـساوي عـشرات الآلاف مـن الدراهم والدنانير.

وهـذا جـريح في وقعـة اليرمـوك يعـرض عليـه كـوب مـن المـاء وهـو يكـاد يفـارق الحيـاة فيمتنـع أن يتناول، ولو جرعة منه تبل أحشاءه التي تحترق بنار العطش وأشار إلى ذي المـاء بـأن أسق أخي الجريح الثاني وهكذا فعل الثالث حتى فارقوا جميعًا الحياة مغفورًا لهم دون أن تروى أحشاؤهم بماء الدنيا.

فهـل في تـاريخ العـالم صـور نورانيـة تـشع مـن جوانبها عواطف التضحية والإخاء والمودة وبذل النفس والنفيس في سبيل الخير العام كما هو موجود في تأريخ الإسلام.

ما أحوج هذه الأمة وهي تجتاز محنتها القاسية في هـذا القـرز الـذي تـداعت عليهـا أمـم الأرض كـما تداعى الأكلة إلى قصعتها، وتنزع من جسمها سهام العـداوة والبغـضاء، وتقتـبس مـن كنـوز الفرقـان والسنة وتـاريخ الإسـلام مـا فيـه حيـاة وشـفاء لمـا في الصدور إنها بذلك وذلك وحدة تقضي على بذور العصبية القبلية والمذهبية والطائفيه.

أثر الشمس في الكون

بقلم: الأستاذ/ أحمد الشرباصي

أحمدك يا بارئ النسم، ومبدع الكون من العدم، وواهب الأمم جزيل النعم ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾. نشهد أن لا إله إلا أنت، ملأت الكون على الإنسان نعمةً وخيرًا، وأوسعته بفضلك تكرمةً وبرًا، وأنت الرؤوف الرحيم، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمدًا عبدك ورسولك وهبته النفس الكبيرة والعين البصيرة فكان لك ذكورًا شكورًا، فصلواتك اللّٰهم وسلامك عليه، وعلى آله النجوم النيرة، وأصحابه العصبة الطاهرة، وأتباعه الكتيبة الظاهرة؛ أولئك حزب الله. ألا إن حزب الله هم الغالبون، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملًا صالحًا ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا.

يا أتباع محمد عليه السلام.

يقولون: إنّ كل ممنوع مطلوب، وكل مألوف غير مرغوب، وإن النعمة الجميلة العظيمة إذا باتت في يد الكل فقدت روعتها؛ وأصبحت من شيوعها وذيوعها معروفةً مألوفةً، لا يلتفت الناس إليها ولا يحتفلون بها؛ وهذا جد صحيح، فما أكثر نسيان الإنسان؛ وإنك لتجد مصداق ذلك في موقف الناس من مظاهر الطبيعة الرائعة الشائعة؛ كلون السماء الأزرق مثلًا الذي هيأه الخلاق وأبدعه بصورةٍ لا تمل العين من إدامة النظر إليه: وهناك أيضًا الأسرار والعجائب المستورة والمتبدية في الماء والهواء والخضرة والضوء؛ قل من يعكف عليها دارسًا مستنبطًا، أو معتبرًا متدبرًا؛ ومن هنا ضعفت روح اليقين والإيمان؛ واستأسدت نوازع الغفلة والكفران؛ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون؟!.

ومن أمثلة ما ضاع تأثيره في عامة الناس؛ لأنه شاع، مع أنه من جليل الآيات ونفيس المتاع، تلك الشمس الكبرى التي نراها في الصباح والمساء؛ وفي ساعات النهار المتباعدة والمتتابعة؛ فقد جنت رؤيتنا المتكررة لها على جلالها وسلطانها، فأصحبت كالكنز الثمين ألقي في طريق الناس؛ ولكنهم يمرون عليه وهم عنه غافلون.

هذه الشمس السامقة العالية هي مصباح الله في كونه العريض المديد؛ جعلها الله سراجًا لعباده. تبدو فوقهم من مستقرها الرفيع بضخامتها التي لايتصورها عقل الإنسان؛ فتنير المسالك وتبدد

الغياهب؛ وتجلو ضحوة النهار، وتفيض على القمر المعتم بالأشعة الأنوار، فهدى بفضلها الحائرين ويسدد بمددها خطوات السارين، وتتبدى بذلك في السماء والأرض صورة لامماثل لجلال البديع الخلاق، مما يفضى بمتأمله إلى الاستقامة والهداد: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾... ولو ذهبنا نفصل الحديث عن حجم الشمس وعلوها، وبعد المسافة الهائل بيننا وبينها، وكيف تنبعث الأشعة عنها، وكيف تشمل هذه الأشعة الوسيع من البقاع والأصقاع، لانبهرت العقول وتضاءلت الفحول!.

والشمس هي مصدر الحرارة الإلهية، تبزغ من خدرها على العالم الراكد الآسن البارد، فتحركه وتثيره وتجففه، وتنأى به عن الوصب والعطب، ولست أدري ما ذا يكون حال الناس عند الشتاء والصقيع وبرودة الجو. لو انعدمت الشمس فلم تطلع عليهم من حين لحين، لتمدهم بجانب من الدفء والحرارة، تتهيأ به الأحياء لمواصلة السير في مختلف الأنحاء؟. وليس هذا فحسب؛ بل إن الجو الرطب ا لعفن الملوث تتفشى فيه الجراثيم والديدان والحشرات والميكروبات، وإن استتر ذلك عن العيون والأبصار، وتبتر لتثمر، وتقضي على الداء وحملته بلا إبطاء!.

والكثيرون منا يتأففون ويتضجرون ويشكون من حرارة الشمس إذا قست، مع أنهم يستطيعون التحفظ منها في أغلب الأحيان بغطاء أو وقاء، ثم يحسبون هذه القسوة في الحرارة شرًا، وما ذلك إلا لأنهم يحكمون نفعهم الذاتي ومصلحتهم الشخصية في أمر عام، فهذه الحرارة القاسية نفسها هي التي تطهر الأجواء من الفساد، وهي التي تنضج النبات الخارج من الجماد، وهي التي تجذب إل الجو ما تستخلصه عذبًا من مياه البحار والميحطات ليكون مطرًا بعد ذلك؛ ثم يبقى ما ينفع الناس في الأرض مما فصلته عن تلك المياه، وهي التي تؤثر في نسيم البر والبحر المترتب عليه كثير من المصالح والأمور والشمس في الوقت نفسه تؤدب بحرارتها من يصطلي بها، فتعلمه ضعفه وتقفه على عجزه، وترمز له إلى هول ما سيلقاه من حر السعير إن كان من الضالين، وفي كل هذه آيات وعبر ونعم بعضها منشور وأغلبها مستور، ولعل القرآن الكريم يشير إلى هذا ومثله حين يقول: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ۝٣٣ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ۝٣٤﴾.

والشمس بحريانها ودورانها هي التي تكون بأمر الله تتابع الليل والنهار، وتوالي الظلمة والإبصار، فهي تطلع هنا فيكون صباح وإشراق وضاح، بينما ترحل عن هناك فإذا فيه ظلام وإعتام،

وفي كلتا الحالتين إنعام وإكرام، فالنهار معاش ومجال للكدح والاكتساب، والليل لباس وسكن ورقاد، ومن هنا كان إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل آية عظمى يمن الله بها على عباده فيقول: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴿٤٠﴾﴾.

ودورة الشمس هي العماد في الحساب وضبط الأوقات، وتلف الشمس حول الأرض أو تلف الشمس حول الأرض لغةً ظاهريةً كاملةً، فيتم بذلك عام من حياة الناس، وتنتقل من فلك إلى فلك، فتبدأ الفصول أو تنتهي، وتشرق فيبدأ النهار، وتغرب فينتهي النهار ويبدأ الليل، فإذا عادت إلى الإشراق مرةً ثانيةً فقد تم بذلك يوم كامل.

ونحن نحدد بها أعمالًا جليلةً تتخلل اليوم نفسه كالصلاة مثلًا، فبشروقها ينتهي وقت الصبح، وبزوالها يدخل وقت الظهر، وبتصييرها ظل الأشياء مثلها أو مثليها يدخل وقت العصر، وبغروب قرصها يدخل وقت المغرب، وبزوال ما يتخلف عنها من شفق يدخل لوقت العشاء، وهكذا... وحينئذ فما أبلغ القرآن حين يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴿٥﴾﴾.

ولو شئنا لأطلنا الحديث أيضًا عن أشعة الشمس وخصائصها في تنمية الأجسام وتقويتها، وشفائها لكثير من العلل والأمراض، وبنائها للأجسام الفئية المنسقة ثم إيحائها من جهة أخرى بالحرص على العلو فهي في منتهى السمو والارتفاع، وبتحريضها على الصفاء فإننا لا نرى فيها كلفًا ولا دخنًا؛ بل هي ا لمثل في الوضاءة والنقاء، وكيف لا تكون منيرة العالم كله مثلًا في النور والبهاء!؟.

يا أتباع محمد عليه السلام.

تلك بعض آيات الله في الشمس التي لا تحجب عن دنيانا يومًا من الأيام، والتي نحس بها على الدوام، ومن هنا تعرفون مالها من جلال وجمال وخطورة شأن، ولسنا ندعوكم بهذا إلى عبادتها أو تقديسها، فقد قال القرآن: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ وإنما ندعوكم إلى أن تخصصوا من أعماركم لحظات أو فترات تولون فيها وجوهكم شطر الطبيعة محراب الله الواسع، لتدركوا آثارها الباقية ومظاهرها الخالدة، فمن وراء ذلك علم واكتشاف، واكتساب وارتشاف، ومن وراء ذلك إيمان ويقين، ونور مبين فسيروا وانظروا، وفكروا واعتبروا، إنما يتذكر أولو الألباب، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

الشيخ العلامة قمرالدين الكوركفوري رحمه اللّه
أستاذ الحديث بدارالعلوم بديوبند

بقلم: **الأستاذ محمد أجمل القاسمي**(*)

تخرجنا في الجامعة الإسلامية دارالعلوم بديوبند عام ٢٠٠٣م الموافق ١٤٢٤هـ على مشايخ كبارالسن والتجربة الذين قضوا في خدمة العلم والتدريس فترةً طويلةً، وتخرج عليهم أجيال من العلماء، وما أسرعَ ما تمر الأيام والليالي، فقد مضى على تخرجنا في الجامعة أكثر من عشرين عامًا، وخطف المنون خلال هذه الفترة – القصيرة في حساب الخيال المديدة في تقويم الزمان وحساب الأيام الليالي– معظمَ مشايخنا واحدًا تلو آخر، حتى لم يترك من بينهم إلا اثنين أو ثلاثةً ممن يعانون عوارضَ الشيخوخة المتكاثرة والضعف المتناهي لأجل التقدم في السن، بارك الله في مساعيهم، ويبقيهم لنا قرير العين وبرد الفؤاد إلى أمد بعيد جدًا.

إن هؤلاء المشايخ جميعهم كانوا يتَّسمُون بالجمع بين العلم النافع والعمل الصالح، فكانوا يمتازون بالصلاح والورع والتقوى، والمحافظة على الصلوات في المساجد بالجماعة بالرغم مما كانوا يعانونه من عوارض التقدم في السن، وإحياء الليالي بالقيام بين يدي الرحمن، والتقيد بالسنن والآداب الإسلامية في عامة أمور الحياة، والمواظبة على الأوراد والأذكار والأدعية المأثورة، بجانب الانكباب على العلم والدراسة ومايجب على الأساتذة من تحضير المواد الدراسية للتقديم إلى الطلبة، والتقيد باللوائح والأنظمة الجامعية، وبذل النصح لطلبة العلم. وقد اتفق لي أن ألاحِظ بعضًا منهم في بعض رحلاته، وكانت مقاعدنا في القطار وجهًا لوجهٍ، فلما دخل الهزيع الأخير من الليل انتبهتُ من النوم، فوجدتُه يستعد للصلاة والمسافرون غاطّون في النوم، فقمتُ أنا من المقعد، لأداء صلاة الفجر، فقال لي: إن الفجر لم يطلع بعدُ، وأشار إلي بالاستراحة، فاسترخيت على مقعد، وتناومت مهابةً منه وإجلالًا، ومازلت أتصيد إليه النظر لتكتحل عيني من مرآه في صلاته الهادئة الخاشعة، فيا له من منظر رائع جميل في مثل تلك الساعة المباركة، أثّر في قلبي الغض تاثيرًا لايكاد يوصف، وخلَّف ذكراه عالقةً بالخيال كحلم لذيذ.

وقد فارقنا في الأيام الأخيرة أحدُ هؤلاء المشيخة القدامى في الجامعة الإسلامية وهو الشيخ

(*) خادم التدريس بالجامعة القاسمية شاهي بمرادآباد

العلامـة قمرالـدين الكوركفـوري رحمـه الله أسـتاذ الحديث والتفسير بها، بعد معاناة طويلة من المرض ووعكـة صـحية مديـدة، فإنـا لله وإنـا إليـه راجعـون، رحمه الله رحمةً واسعةً، وأنزل عليه شآبيب مغفرته ورضوانه وأدخله فسيح جناته.

إن مـشايخنا في الجامعـة الإسـلامية دارالعلـوم بديوبنـد كـانوا يـذهبون في مـواهبهم وكفـاءاتهم وقـدراتهم وأذواقهـم وأولويـاتهم مـذاهبَ شـتى، فمنهم من كان صاحب بحث وتدقيق، ومنهم من كان صاحبَ أخذ واستنباط، ومنهم من كان يحشد الدلائل ويقارن ويحاكم، ومنهم من كان يهُمُّه تيسيرُ العسير وتبسيط المباحث العصية على الفهم، وهكذا إلى الآخرين. أما فقيدنا رحمه الله فكان يمتاز بطابع الـصلاح والإصـلاح والتزكيـة والإحـسان، مـع كفاءتـه العلميـة وقدرتـه عـلى شرح المـواد الدراسـية شرحًا مُقنِعًا يستسيغه الطلبة بسهولة.

كـان الـشيخ يـدرس في قـسم الفـضيلة – المعروف في عرفنا المدرسي بدورة الحديث– صحيح مـسلم وسـنن النـسائي، كـما كـان يـدرس في قـسم التفسير تفسيرالقرآن الكريم للحافظ ابن كثير رحمه الله، كما تشرف بتدريس المجلد الثاني من صحيح البخاري منذ عشرسنوات تقريبًا، بعد وفاة الشيخ عبـدالحق الأعظمـي رحمـه الله، وكـان يعتمـد في دروسه لـصحيح مـسلم عـلى شرح المـسلم للنـووي وفتح الملهم للعلامة شبيرأحمد العثماني رحمهما الله، أما دروسه لصحيح البخاري فما قرأنا عليه صحيح البخـاري، إلا أننـي سـمعت بعـض مقـاطع فيـديو لدرسـه في صـحيح البخـاري الـذي ألقـاه في أواخـر أيـام حياتـه، عنـد مـا أنهكـه المـرض وعـصره عـصرًا، فوجدتـه يـتكلم بوضـوح وتفـصيل، ويـسرد أقـوال الـشراح سردًا بثقـة وإتقـان، لايخونـه اللـسان ولا الـذاكرة، فعجبـت ممـا رأيـتُ، وحـسبته بركـةً مـن بركات خدمته للحديث الشريف.

كان رحمه الله واضح الصوت جَهوريَّه، سهلَ الكـلام، يفهمـه الأذكيـاء والأغبيـاء عـلى حـد سـواء، وكـان كلامـه في شرح الـدروس الحديثية والتفسيرية واقفًـا عنـد الغـرض، لايطيلـه فيُمِـلّ، ولايـوجزه فيُخِـلّ، وكـان يـذكر اختيـارات وترجيحـات علـماء ديوبند في شرح الحديث باهتمام بالغ.

كـما كـان رحمـه الله سـهلَ الخُلـق، سـهَل المنـال، سهل المعاملة، آلفًا مألوفًا، لينَ الجانب والعريكة، سريعَ الرضـا، بعيـدَ الـسخط، مُرتَـاحَ القلـب، راضيَ الضمير، طيب النفس، نقي السيرة والسريرة، ومحبَّبًا لدى الطلبة والأساتذة على حد سواء، ماعادى أحدًا قـط كـما لم يعـاده أحـدٌ، ولم يـدخل قـط في النزاعـات والخلافات.

وبما أنه كان من أقدم مشايخ دارالعلوم، فكان يحترمه الجميعُ ويُحِبُّه ويُجِلُّه، إلا أنه كان لايَهَابُه أحد لِمَـا جُبِـل عليـه مـن اللـين والـسهولة في التعامـل مـع الآخرين، وبعده عن التزمُّت والغضب.

وكـما ذكرنـا أنـه رحمـه الله كـان يمتـاز بـسمة الـصلاح والإصـلاح والتزكيـة والإحـسان، فكـان

ينتهـز كـل فرصـة مُتاحـة للإصـلاح والتربيـة، في الدرس وخارج الدرس، فيحث الطلبة على الصلاح والإقلاع عن المعاصي والمُنكرات، والاهتمام بالسنن والآداب الإسلامية المأثورة، وينبه إذا رآهم يهملون اتبـاع الـسنن والآداب الإسـلامية أو يغفلـون عـن بعـض الأحكـام اللازمـة في صـلواتهم، وعـاداتهم، وأخلاقهم، وسلوكياتهم.

وكـان من عادته الكريمة أنه كثيرًا مّا كان يقوم بعد الصلوات المفروضة بعد تسليم الإمام في المسجد القديم بالحرم الجامعي، فينبه الطلبة على بعض المسائل والأحكـام التـي ينبغـي مراعاتهـا في الـصلاة، إلا أن المـصلين لايبـالون بهـا في صـلواتهم بـسبب إهمـالهم وغفلتهم، وكان ينبه كثيرًا على ترك التلاعب بالأثواب واللُّحى في الصلاة، من الأمور التي تذهب بالخشوع، كـما كـان ينكـر إذا وجـد أحـدًا مـن الطلبـة يـصلي الـسنة القبلية في صلاة الفجر داخل صفوف المصلين، وكان يُوصيه بأن يصلي الركعتين خارج المسجد، ثم يحضر المـسجد، ويـصلي مـع الإمـام المفروضـة، أمـا داخـل الـصفوف والإمـام يـصلي بالنـاس الـصلاة المفروضـة فذلك مكـروه أشـدَّ الكراهـة... ومـن أمثـال ذلـك مـن المسائل التي تكثر فيها الغفلة.

وربـما كـان رحمـه الله وحيـدًا مـن بـين الأسـاتذة يقـوم في المـسجد بعـد الـصلوات المفروضـة لـيعلِّم ويرشـد، ويُنبـه النـاس عـلى أخطـائهم حتـى يتـداركوا ولايعودوا.

وكـان رحمـه الله شـديدَ الحـب للعلـماء الربـانيين، وأوليـاء الله الـصالحين، والمـشايخ المَعْنِيين بالإرشـاد وإصـلاح القلـوب وتزكيـة النفـوس، فكـان يملـك مخزونًـا لاينفـد مـن قـصص وأحـوال وسـير وأقـوال هـؤلاء العلـماء، ولاسـيما مـن قـصص وأقـوال علـماء ديوبنـد ومـشايخها الـذين تتلمـذ إلـيهم، فكـان يفـوز لكل موقف من المواقف ولكل حال من الأحوال بمايناسب ذكـره فيـه مـن قـصص العلـماء والـصلحاء وأقـوالهم وتوجيهـاتهم، فكـان ينقلهـا ويتمثـل بهـا في عامـة مجالـسه وأحاديثـه وخطبـه ومواعظـه، فيتمتـع ويُمَتِّـع الآخـرين بأحاديثـه الحلـوة المعجونـة بحـب الـصالحين والأوليـاء الربـانيين، ويحـثهم مـن خـلال ذلك على الصلاح والتقوى والعمل الصالح.

وكـان رحمـه الله قـد لازم شـيخه الجليـل علامـة المنقول والمعقول الشيخ محمد إبراهيم البلياوي رئيس هيئة التدريس في الجامعة الإسلامية سابقًا عندما كان طالبًـا في دارالعلـوم، وصـحب معـه كخـادم طيـع ووفِيّ مخلص، فتعلم من صحبته كثيرًا، وارتوى من معينه العلمـي ارتـواءً، وظـل دائـمًا فخـورًا بـصلته بالـشيخ البليـاوي، ويجـدر بالـذكر أن صـلة الفقيـد بالـشيخ البلياوي (بعد كفاءته العلمية والتدريسية) هي التي تسبَّبت في تعيينه أستاذًا في دارالعلوم بديوبند.

وكـان فقيـدنا-رحمـه الله- شـديدَ الإعجـاب بشخصية العلامة البلياوي رحمه الله، كثيرالثناء عليه، كثيرَ التمثّل بأقواله وآرائه في كل صغير وكبير، فقلما تحدث الشيخ في أمر من الأمور إلا وتطرق الحديث إلى العلامة البلياوي، وتمثل بقول من أقواله قائلًا: قال

العلامـة كـذا في مثـل هـذا الموقـف، وكـان إذا أطلـق العلامـةَ أراد بـه شـيخه العلامـة البليـاوي، ولا أدري أ لصق لقبُ العلامة بشيخنا الفقيد - رحمه الله- بسبب تـرداده وتكـراره كلمـة «العلامـة» في مجالـسه وأحاديثـه وخطاباته بكثرة، أم كان لذلك سبب آخر؟

وكــان يحــثُّ الطلبــة عــلى ملازمــة الــشيوخ ومصاحبتهم، ويقول: خدمة الشيخ تُحل التلميذَ في محل الشيخ، ويُبرهن على ذلك بأمثلة، ومن بينها أنه هو كان خادمًـا للعلامــة محمــد إبــراهيم البليــاوي، والــشيخ البليـاوي كـان يـدرس صـحيح مـسلم في دارالعلـوم، فخدمتـه للـشيخ وملازمتـه لـه هـي التـي جعلتـه يخلـف شيخه في تدريس صحيح مسلم في نفس الدار.

وكـان رحمـه الله جميـل الخلـق، بسيطًا في المـأكـل والملبس، سريع الاستجابة لما يُطلب منه إذا كان مما يقدرعليـه، رحـيمًا بالطلبـة، وكـان يُـداعب جلـساؤه وتلاميـذه في وقـار وعفـة، وكـان عليـه بـراءة كـبراءة السُذج من الناس، وكان التقوى وآثار الصلاح تبدو من مُحيّاه، ومن هيئته الخاشعة المتواضعة.

وكـان رجلًا طويلَ القامة، عظيمَ الهامة، جميلَ الهنـدام، نظيـفَ المظهـر، بعيـدًا عـن كـل مـا لايَعْنِيـه، يمـشي متكئًـا عـلى عكازتـه في هـدوء ووقـار، ولكـن عندما رأيته آخر مرة منذ عام أو أكثر وجدتُّه منهوكَ القـوى، ضـيعف البنيـة، وكأنـه مجموعـة مـن العظـام والجلد، وكان لايستطيع الحراك بسبب الفالج الذي نـزل بـه، وكـل ذلـك كـان يؤكـد أنـه لايعـود إلى التدريس، ولكن الله سبحانه وتعالى عافاه من وطأة المـرض، فعـاد إلى عملـه ووظيفتـه، واسـتفاد بـه كثـير مـن طلبـة العلـم الـذين كـانوا يتمنـون الاسـتفادة منـه، حتى وافاه الأجل المحتوم.

وبجانـب خدمـة التـدريس كـان يقـوم بزيـارات دعويـة وإصـلاحية وعلميـة في مختلـف أنحـاء البـلاد، فيفيـد الجماهـير بمواعظـه وخطبـه المـؤثرة الداعيـة إلى الصلاح والتقوى، والائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر، والإقلاع عن المعاصي، وقد اعتكف سنوات في رمضان المعظم في مدينة آم بور بولاية تامل نادو، حيـث كـا يقـوم بتربيـة مريديـه ومُحبيـه، وإصـلاح القلـوب وتزكيـة النفـوس، فتخـرج عليـه في التزكيـة والإحـسان عديـد مـن العلـماء كـما انتفـع بأحاديثـه الإصلاحية عدد كبير من الناس، حتى دوّن البعضُ أقوالَه في الإصلاح والتربية في مجموعة.

وُلد العلامة قمرالدين بن الحاج بشيرالدين في بلـدة برهـل كـنج بمديريـة كوركفـور في الثـاني مـن فبرايـر عـام ١٩٣٨م وتلقـى الدراسـة الابتدائيـة عنـد بعـض المعلمـين، ثـم التحـق بمدرسـة إحيـاء العلـوم ببلـدة مبـاركفور بمديريـة أعظـم جـره، ومكـث فيهـا عامًـا، ثـم التحـق بـدارالعلوم بمئـو، ثـم سـافر إلى ديوبند، ونال القبول في الجامعة الإسلامية دارالعلوم بهـا، وتخـرج حـائزًا عـلى شـهادة الفـضيلة في العلـوم الإسـلامية عـام ١٩٥٧م، ثـم مكـث عـامين لإتقـان بعض العلوم والفنون الآخرى، وكان من مشايخه في دارالعلـوم العلامـة المحـدث القائـد الكبـير في كفـاح تحريـرالبلاد الـشيخ حـسين أحمـد المـدني، والعلامـة

الجامع للمنقول والمعقول الشيخ محمد أبراهيم البلياوي، والشيخ المحدث العلامة فخرالدين أحمد المراد آبادي (من كبار تلامذة شيخ الهند رحمه الله) والشيخ بشيرأحمد خان البلند شهري، والشيخ فخرالحسن المراد آبادي، والشيخ عبد الأحد الديوبندي وغيرهم من المشايخ الآخرين.

وبعد إكماله الدراسة عُيِّن أستاذًا بفضل مساعي شيخه العلامة محمد إبراهيم البلياوي في مدرسة عبدالرب بدهلي، ومكث فيها ثمانية أعوام أو أكثر، ودرّس فيها كتبًا مختلفةً في مختلف العلوم والفنون، كما كان يفسر القرآن الكريم بمسجد بدهلي للمصلين، ثم تم تعيينه أستاذًا بدارالعلوم بديوبند بفضل عناية الشيخ البلياوي الذي كان رئيس هيئة التدريس بالدار، وذلك عام١٩٦٦م، وبفضل جهوده في التدريس تقدم سريعًا، وأصبح من مشيخة التفسير والحديث، كما تولّى إدارة شؤون التعليم والقبول إلى مدة، وبارك الله في عمره وعمله، فبقي يؤدي خدمته للعلم إلى آخر أيام حياته، وقد عمل أستاذًا بدارالعلوم طيلة ٥٨ عامًا، وتخرج عليه في هذه الفترة المديدة آلاف من طلبة العلم والمعرفة.

وكان الشيخ شديد العناية بالتزكية والإحسان، فارتبط بعديد من كبار مشايخ التزكية والإحسان من أمثال العالم الصالح المصلح الشيخ وصي الله خان الإله آبادي، والشيخ المصلح محي السنة محمد أبرار الحق الهردوئي، وتخرج عليهما في التزكية والإحسان، وظل محبًا للأولياء والأتقياء ومُحَبَّبًا لديهم.

كان الشيخ يمر بوعكة صحية منذ أعوام، إلا أنه اشتد به وطأة المرض في أواخر أيام حياته، حتى استاثرت به رحمة الله تعالى في ١٩/جمادى الأخرى عام ١٤٤٦هـ الموافق٢٢/ديسمبر٢٠٢٤م، وصلى عليه صلاة الميت عدد كبير من العلماء وطلاب العلم، ودُفن بالمقبرة القاسمية بديوبند.

كان الشيخ رجلًا عقيمًا لم يخلِّف ولدًا، إلا أنه قام بتربية بعض أبناء إخوته وتثقيفه وهوالشيخ معراج الحق حفظه الله الأستاذ بالجامعة القاسمية شاهي بمرادآباد سابقًا، فكان هو بمثابة ابنه الذي تولى هو وأسرته خدمةَ الشيخ رحمه الله وبذل العناية بتوفيرما احتاج إليه من راحة وعلاج، فجزاه الله خيرا لجزاء.

رحمه الله رحمةً واسعة، وتقبل حسناته وخدماته، وغفرعن سيئاته، وأدخله فسيح جناته. آمين!

* * *

إعلان هام

نظرًا لارتفاع نفقات البريد الداخلي
أصبحت قيمة المجلة السنوية
٦٠٠ روبية هندية

العرف الذكي شرح جامع الترمذي
لفضيلة الشيخ المفتي عبد الله المعروفي/حفظه الله

تعريف وعرض: **الأستاذ محمد ساجد القاسمي**(*)

لقد رَحَّبَت الأوساط العلمية والإسلامية في الهند وخارجها من أقطار العالم الإسلامي بالموسوعة الحديثيَّة الضخمة: «العرف الذكي شرح جامع الترمذي» لصاحبه فضيلة الشيخ المفتي المحدِّث عبد الله المعروفي/حفظه الله أستاذ في قسم التخصص في الحديث وعلومه بالجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند بالهند. وقد تشرَّفت بطباعته ونشره مكتبة زكريا/ديوبند التي نشرت كثيرًا من الدواوين الحديثية ومجاميع الفقه والفتاوى.

وقد تمَّ تدشين الكتاب على أيدي نخبة من كبار مشايخ الهند وعلمائها، وعلى رأسهم المفتي خالد سيف الله الرحماني رئيس هيئة الأحوال الشخصية للمسلمين لعموم الهند، والشيخ محمود أسعد المدني رئيس جمعية علماء الهند، والمفتي محمد راشد الأعظمي نائب رئيس الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند وأستاذ الحديث بها، والمفتي زين الإسلام القاسمي الإله آبادي المفتي بدارالعلوم/ديوبند، والمفتي محمد سلمان المنصورفوري أستاذ الحديث بدارالعلوم/ديوبند، والمفتي عتيق أحمد البستوي الأستاذ والمفتي بدارالعلوم التابعة لندوة العلماء بـ«لكناؤ»، والمفتي شبير أحمد القاسمي شيخ الحديث بالجامعة القاسمية شاهي بمدينة «مرادآباد»، والمفتي رحمة الله الكشميري عضو المجلس الاستشاري لدارالعلوم/ديوبند ومدير المدرسة الرحيمية بـ«كشمير»، والمفتي أحمد الديولوي مدير جامعة علوم القرآن بـ«جمبوسر» بولاية «غوجرات»، ومن إليهم.

وحضر مراسمَ تدشينِه جمعٌ حاشدٌ من العلماء والمفتين المشاركين في الندوة الفقهية التي نَظَّمَتْها إدارةُ المباحث الفقهية التابعة لجمعية علماء الهند، في دارالعلوم ببلدة «بوكرن» من أعمال مديريةِ «جيسلمير» بولاية «راجستان» في ١٢-١٤/ربيع الآخر ١٤٤٦هـ الموافق ١٦-١٨/أكتوبر ٢٠٢٤م.

والكتاب شرح كامل لجامع الترمذي في ضوء إفادات العلامة محمد أنور شاه الكشميري وغيره من فقهاء المحدثين، وفيه تحليل وتطبيق لأحكام الترمذي على الأحاديث، يحتوي على ٢٠ مجلدًا في نحو ١٢٠٠٠ صفحةً بالقطع المتوسط، وهو إنجازٌ

(*) أستاذ التفسير والأدب العربي بالجامعة الإسلامية: دار العلوم / ديوبند بالهند.

علميٌ هامٌّ تمَّ على يد أحد أساتذة دارالعلوم/ ديوبند، واستغرق ٢٠ عامًا، ويمكن لنا أن نعتبر هذا السفر العظيم أكبر كتابٍ حديثيٍّ في العالم الإسلامي لعام ١٤٤٦هـ.

الإمام الترمذي وجامعه

لقد أثنى العلماء والمحدثون على الإمام الترمذي وأشادوا بفضله، وأقروا له بالإمامة في هذا الفن، فقد قال محمد بن إسماعيل البخاري له: «ما انتفعتُ بك أكثرُ مما انتفعتَ بي».

وقال الإدريسي فيه: «أحد الأئمة الذين يُقتدى بهم في علم الحديث، صنَّف الجامع، والتواريخ، والعلل، تصنيفَ رجلٍ عالم متقن، كان يُضرَبُ به المثل في الحفظ».(شروط الأئمة الستة ص: ١٧).

وقال الذهبي: «صاحب الجامع ثقة مجمع عليه». (ميزان الاعتدال:٣/١١٧).

كما أن جامعه له قيمة علمية كبرى، ومكانة سامية مرموقة في أوساط العلماء والمحدثين، فقد أشاد به وقرَّظ له كثيرون منهم. قال الإمام الترمذي نفسه مبيِّنًا قيمته العلمية: «صنفتُ هذا الكتاب، فعرضته على علماء الحجاز، فرضوابه، وعرضته على علماء العراق، فرضوا به، وعرضته على علماء خراسان، فرضوا به، ومن كان في بيته هذا الكتاب فكأنَّما في بيته نبي يتكلم».(جامع الأصول ١/١١٤).

وقال الحافظ أبو بكر بن العربي في أول شرحه على جامع الترمذي الذي سماه تحفة الأحوذي: «ليس في قدر كتاب أبي عيسى مثلُه حلاوةَ مقطعٍ، ونفاسةَ منزعٍ، وعذوبةَ مشرعٍ، وفيه أربعة عشر علمًا، وذلك أقرب إلى العمل وأسلم، وأسند وصحَّحَ، وصنَّفَ، وعدَّد الطرق، وجرح، وعدَّل، وأسمى، وأكنى، ووصل، وقطع، وأوضح المعمول به والمتروك، وبين اختلاف العلماء في الرد والقبول لآثاره، وذكر اختلافهم في تأويله، وكل علم من هذه العلوم أصل في بابه، وفرد في نصابه».

وقال الشيخ الباجوري في شرحه على الشمائل: «ناهيك بجامعه الصحيح، الجامع للفوائد الحديثية والفقهية، والمذاهب السلفية والخلفية، فهو كاف للمجتهد، ومغنٍ للمقلد».

وقال عبد الله بن محمد الأنصاري: «كتابه عندي أنفعُ من كتاب البخاري ومسلم؛ لأن كتابي البخاري ومسلم لايقف على الفائدة منهما إلا المتبحر العالم، وكتاب أبي عيسى يصل إلى فائدته كل أحد من الناس».

وقال ابن الأثير: «كتابه الصحيح أحسن الكتب، وأكثرها فائدةً، وأقلها تكرارًا، وفيه ما ليس في غيره من ذكر المذاهب ووجوه الاستدلال، وتبيين أنواع الحديث من الصحيح والحسن والغريب، وفيه جرح، وتعديل، وفي آخره كتاب العلل قد جمع فيه فوائد حسنة، لا يخفى قدرُها على من وقف عليها». (جامع الأصول ١/١١٤).

شروح جامع الترمذي

ومن هنا ظل جامعه مَصَبَّ اهتمام العلماء

والمحدثين على مرِّ العصور شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا، فاشتغلوا به تدريسًا وتعليمًا، وتحشيةً وتعليقًا، وشرحًا وتوضيحًا، وخدموه من النواحي المختلفة، ومن أهم شروحه:

١- عارضة الأحوذي في شرح الترمذي للحافظ أبي بكر محمد بن عبد الله الإشبيلي المعروف بابن العربي المالكي المتوفى سنة ٥٤٦هـ.

٢- النفع الشذي للحافظ أبي الفتح محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمري الشافعي المتوفى سنة ٧٣٤هـ.

٣- العرف الشذي على جامع الترمذي لسراج الدين عمر بن رسلان البلقيني الشافعي المتوفى سنة ٨٠٥هـ.

٤- شرح العلل للإمام زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي المتوفى سنة ٧٩٥هـ.

٥- قوت المغتذي لجلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ.

٦- تحفة الأحوذي للعلامة الشيخ عبد الرحمن المباركفوري المتوفى سنة ١٣٥٣هـ.

٧- العرف الشذي على جامع الترمذي إفادات العلامة محمد أنور شاه الكشميري التي ضبطها صاحبه الشيخ محمد جراغ الكجرانوالوي.

٨- معارف السنن للعلامة محمد يوسف البنوري المتوفى سنة ١٣٩٧هـ.

عناية مشايخ ديوبند بجامع الترمذي

لقد عُني مشايخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم /ديوبند عنايةً كبيرةً بجامع الترمذي تدريسًا وتعليقًا وشرحًا وتوضيحًا، فوضعوه في المنهج الحديثي المقرَّر تدريسُه في الجامعة، والذي لا ينال متخرجوها شهادة الفضيلة إلا بدرسه وقراءته على مشايخها. كما أنهم عُنوا بتدريسه بدءًا من الإمام ولي الله الدهلوي، مرورًا بالشيخ المحدث رشيد أحمد الكنكوهي، والشيخ محمود حسن الديوبندي، والعلامة محمد أنور شاه الكشميري، والشيخ حسين أحمد المدني، والشيخ فخر الدين أحمد المرادآبادي، والعلامة محمد إبراهيم البلياوي، وصولًا إلى الشيخ المفتي سعيد أحمد البالنفوري.

كما تم تدوينُ ونشرُ إفاداتهم وأماليهم على الجامع، نحو الكوكب الدري على سنن الترمذي للشيخ رشيد أحمد الكنكوهي، والعرف الشذي للعلامة محمد أنور شاه الكشميري، والمعارف المدنية للشيخ حسين أحمد المدني، ومعارف السنن للعلامة محمد يوسف البنوري، وتحفة الألمعي للشيخ المفتي سعيد أحمد البالنفوري.

هذا إلى أن باحثي ومتخصصي قسم التخصص في الحديث وعلومه بالجامعة قاموا بدراسة وتطبيق مصطلحات جامع الترمذي: حديث حسن، وحسن غريب، وحسن صحيح، وحديث غريب، وذلك تحت إشراف فضيلة الشيخ العلامة نعمة الله الأعظمي، وصاحبنا فضيلة الشيخ المفتي عبد الله المعروفي، وقامت أكاديمية شيخ الهند التابعة للجامعة بطباعة ونشر دراساتهم هذه التي لقيت

إعجابًـا وقبـولًا في الأوسـاط الحديثيـة في الهنـد وخارجها.

العرف الذكي شرح جامع الترمذي

في هـذا الجـو العلمـي المتـوارث، والخَلَفيَّـة الحديثيَّـة الهامَّـة إنجـازُ «العـرف الـذكي»: تلـك الموسوعة الحديثية على يد أحد أبناء الجامعة، وهو المفتـي عبـد الله المعـروفي عـضو هيئـة التـدريس بالجامعـة وأسـتاذ بقـسم التخـصص في الحـديث وعلومه بها، لايدعو إلى الاستغراب؛ فإن الـذهب من معدنه لا يُستغرب.

ولايخفى على المشتغلين بالحديث وعلومه أن الإمام الترمذي قد استخدم في جامعه مصطلحات للحكـم عـلى الأحاديـث، فطـورًا أفـرد الحكـم عـلى الحديث بالصحة أو الحسن أو الغرابة، وطورًا آخرَ جمع في الحكم على الحديث بين الصحة والحسن أو الحسن والغرابة، أو الصحة والحسن والغرابة، مما تـركهم حيـارى مـضطربين، لا يكـادون أن يـدركوا غرضه من وراء استخدام هذه المصطلحات مفردةً ومركبةً.

فقـال بعـضهم: إن إدراك غرضـه مـن هـذه المـصطلحات و تطبيقهـا عـلى الأحاديـث شـبهُ مستحيل، وحاول آخرون محاولاتٍ جادَّةً، إلا أنها لم تأتِ بما يشرح الصدور، ويقنع القلوب. حتى قال العلامـة المحـدث محمـد محسن بـن يحيـى البكـري التُرْهُتي: «ومما أشكل على الناس قديمًا وحديثًا أنه كثيرًا مَّا يجمع في كتابه بين الحسن والصحة والغرابة، وقد اجتهد في التفصّي عن ذلك كل ذي جهدٍ منهم جهدَه، وذكر ما رأى أنه أجود ما عنده، ثم تعقَّبه بعض من جاء بعده، والحق أنه لا يتأتى حلُّ ما أعضل علينا إلا بجمع الأحاديث التي قيل فيها ذلك، ثم جمع طرقها، ثم النظر في أسانيدها، ولا ينوء بها إلا النقَّاب المبرِّز من الحفاظ، ومن لنا به في عصرنا هذا ؟ وإنَّه قد نِيْط بالعيُّوق ونحنُ بمنقع الثرى، والله المستعان.(اليانع الجني من أسانيد الشيخ عبد الغني، ص: ١٠١).

فـرغم تكـاثُرِشروح الجـامع وتنوُّعهـا كانـت الأوساط الحديثية تنتظر منذ قرون من الزمان مَنْ يقوم بشرح الجامع وحلِّ معضِلاته، حيث يدرس مصطلحاته دراسةً شاملةً مستوعبةً، ويطبقها على الأحاديث تطبيقًا يزيل ما كان يختلج في القلوب من شكوك وأوهام، ويفنِّد ما أثير حولها من شبهاتٍ واعتراضاتٍ. وينبغي أن يكون كلُّ ذلك بأسلوبٍ علميٍ جادٍّ مقنع، لا تعصُّب فيه، ولاتعسُّف.

قيَّض الله جلَّ وعلا صاحبنا المفضال الشيخ المفتـي عبـد الله المعـروفي/حفظـه الله لهـذا العمـل الجليل، حيث وفقه له، ويسر أسبابه، وأعانه على إتمامه.

فقد خطا، والتوفيق الإلهي حليفُه، نحو هذا العمل خطوات تاليةً متدرجةً:

الخطوة الأولى: سعد المؤلف بحج بيت الله الحرام عام ١٤١٩هـ، ولقي بالمدينة المنورة -على صاحبها الصلاة والسلام- الفقيهَ المحدثَ محمد

عاشق إلهي البرني- رحمه الله- فلمس فيه بصَرًا بالحديث وعلومه، فاقترح عليه بتأليف شرح جامع الترمذي أو تكملة معارف السنن شرح جامع الترمذي للعلامة محمد يوسف البنوري، فاختار أول الأمرين، وبدأ العمل بعون الله وفضله.

الخطوة الثانية: بدأ مِن على منبر قسم التخصص في الحديث وعلومه بالجامعة بدراسة مصطلحات جامع الترمذي وتطبيقها على الأحاديث، وذلك بمساعدة متخصصي وباحثي القسم تحت إشرافه وإشراف فضيلة الشيخ نعمة الله الأعظمي، وبذل لذلك جهودًا مضنيةً نحو خمسة عشر عامًا حتى أخرج أربع حلقات لهذه الدراسات، وهي كالتالي:

١- الحديث الحسن في جامع الترمذي دراسة وتطبيق سنة ١٤٢٥هـ.

٢- حسن غريب في جامع الترمذي دراسة وتطبيق سنة ١٤٢٧هـ.

٣- حسن صحيح في جامع الترمذي دراسة وتطبيق سنة١٤٣٠هـ.

٤- حسن غريب في جامع الترمذي دراسة وتطبيق سنة ١٤٣٦هـ.

لقد حصد صاحبنا المؤلف بدراساته هذه ثناء المشايخ و العلماء والمحدثين وإعجابهم، واستدرَّ دعواتهم ومباركاتهم التى صارت زادًا له في مشواره العلمي الطويل. ولا شك أن هذه الجهود المبذولة نحو خمسة عشر عامًا قدعبَّدت له الطريق وسهلت له المشوار، فلمَّا آن الآوان أعاد النظر في هذه الدراسات وغربلها، وجعلها جزءًا للشرح.

الخطوة الثالثة: بعد أن بدأ العمل على اسم الله وبركته، فوجئ بالعناية الإلهية، إذ اتصل به الشيخ محمد أنظر شاه الكشميري (نجل العلامة محمد أنورشاه الكشميري)، وأخبره بأن لديه كراريس خطية لإفادات وأمالي أبيه على جامع الترمذي، ورجاه أن يدرسها ويخرجها إلى النور تسهيلًا إياها على طلبة الحديث النبوي الشريف ودارسيه. وقع صاحبنا على الكنز العلمي الثمين الذي أصبح أساسًا لهذ العمل، فأخرج جزءًا لهذا الشرح.

الخطوة الرابعة: ثم توسَّع في خطته وأراد أن يكون هذا الشرح أجمع وأحوى وأشمل لإفادات الإمام الكشميري، فجمع – ما وسعه- كراريسه الخطية، وإفاداته وأماليه المطبوعة وغيرالمطبوعة، مثل: العرف الشذي على جامع الترمذي مجموع أماليه المطبوعة التي جمعها صاحبه الشيخ جراغ محمد الكوجرانوالوي، وأنوار المحمود على سنن أبي داود إفادات أربعة من أجلة علماء ديوبند: شيخ الهند محمود حسن الديوبندي، والعلامة محمد أنور شاه الكشميري، والعلامة شبير أحمد العثماني، والشيخ خليل أحمد السهارنفوري، وقد جمعها العلامة عبد الهادي محمد صديق النجيب الآبادي، وفيض الباري مجموع دروس العلامة الكشميري لصحيح البخاري التي ضبطها صاحبه العلامة بدر عالم الميروتي، ومعارف السنن للعلامة محمد يوسف

البنوري، وهو في الحقيقة تبسيط وتوثيق لما حواه العرف الشذي مع زيادات اطلع عليها طوال صحبته لشيخه الكشميري، وأنوار الباري شرح صحيح البخاري بالأردية لصاحبه وصهره العلامة أحمد رضا البجنوري الذي ألفه في ضوء أماليه وإفاداته، وما إليها من كتبه ورسائله في مواضيع شتى مثل: التصريح بما تواتر من نزول المسيح، ومشكلات القرآن، وما إليهما.

فهذه الكراريس والكتب المذكورة أعلاه كانت موادَّ أساسيةً لشرحه، بجانب مآخذ ومصادر من الكتب القديمة والحديثة التي أحال إليها خلال الشرح في الهوامش.

مصطلحات الإمام الترمذي

أما مصطلحات الإمام الترمذي وحكمه على الأحاديث فقد وجد المؤلف مقالةً جيدةً للعلامة الكشميري في هذا الشأن، فجعلها نقطة انطلاق لدراسة جادة شاملة لهذه المصطلحات والأحاديث التي حكم عليها حديثًا حديثًا، فخرج منها بنتائج مقنعة، ووضع في ضوئها مقياسًا للحكم على الأحاديث المسكوت عنها.

والنتائج التي توصَّل إليها المؤلف فيما يلي:

١- كلُّ ما حكم عليه الإمام الترمذي بـ «حسن»- سواء أتى به مفردًا أو مقرونًا بوصف آخر من الصحة والغرابة- لم يُرِد به إلا ما بيَّنه هو في كتابه «العلل» الصغير، وهو: ما لم يكن في إسناده من يُتَّهم بالكذب، ورُوي نحوه من غير وجه، ولم يكن شاذًّا.

٢- كل ما وصفه الإمام بـ «حسن صحيح» ينقسم إلى قسمين رئيسين:

(ألف) ما هو صحيح بالذات بمراتبه المختلفة.

(ب) ما هو صحيح بالغير بأقسامه المتنوعة، وهو الأغلب.

٣- أما قوله «صحيح» فقط فلا يكاد يوجد في الجامع، إن وُجِد شيء من ذلك؛ فلم يلاحظ فيه الترمذي شيئًا يميزه من «الحسن الصحيح»، فبعضها حكم عليه هو بـ «حسن صحيح» في موضع آخر، والبعض الآخر على شرط «الحسن الصحيح» حسب شرطه البتة، فلا يسوغ السؤال هنا قطعًا بأن ما يوجد من «الصحيح» فقط في الجامع هل هو أقوى من «الحسن الصحيح»، أو دونه؟

٤- لاشك في أن ما يصفه الترمذي بـ «حسن» يكون دائمًا أقوى وأعلى مما يصفه بـ «حسن »أو «حسن غريب» في نظره، وربما يكون – في واقع الأمر، أو في نظر غيره- صحيح الإسناد؛ بل وربما أخرجه الشيخان ولو بغير الإسناد الذي أخرجه به الترمذي، وهذه الأحاديث من أدلة توقي الترمذي في الحكم على الحديث.

٥- وكل ما يحكم عليه الترمذي بـ «غريب» فقط، فعامته من قبيل الضعيف المحتمَل، وربما يكون شديد الضعف، ومعلولًا بعلةٍ خفيةٍ وقد بين ذلك.

حينما يوجد فيه الكثير مما هو صحيح الإسناد، أو حسن الإسناد، وقد بينا ذلك في الموقع.

٦- أن الإمام الترمذي في عامة أحكامه على الأحاديث ملتزم بميزان عدل، فيحكم بما هو اللائق المناسب لها من غير بخس ولا شطط، فهو على غاية من التوقي والحيطة، وبعيد كلَّ البعد عن الاتهام بشيء من التساهل أو المحاباة أو العصبية.

٧- أما ما أثير عليه من الظنة والاتسام بوسمة التساهل من بعض العلماء والدارسين، فمنشؤه- لامحالة- إما عدم التفهم لشرط الترمذي أو عدم الاطلاع أو الإغماض- عن عمد أو بغير عمد- عما لاحظه الإمام من الجوابر والعواضد حين إصداره لحكم التحسين أو التصحيح، وربما يكون ذلك من جرَّاء خطأ من أحد النسّاخين».

لم يكتف المؤلف ببيان غرض الترمذي من مصطلحاته؛ بل قام بتطبيقاتها على الأحاديث حديثًا حديثًا، ووضع مقياسًا في ضوء دراساته، يمكن به الحكم على الأحاديث المسكوت عنها.

مزايا هذا الشرح

يمتاز شرح الجامع هذا بين شروحه الكثيرة بما يلي:

١- أكبر ميزة تميز هذا الشرح من الشروح الأخرى هي أن المؤلف درس مصطلحات الإمام الترمذي من الصحيح والحسن والغريب مفردة ومركبة في ضوء ما بين الترمذي مراده منها في كتابه «العلل» بجانب أقوال العلماء وكتب أسماء الرجال في هذا الشأن دراسةً جامعةً شاملةً، فاقتنع بأن غرض الترمذي من وراء مصطلحاته هو نفس ما بينه في كتابه «العلل» لا غيرُ، وطبَّقها على الأحاديث التي جاءت فيها حديثًا حديثًا، إضافة إلى ذلك وَضَعَ في ضوء دراسته هذه مقياسًا يمكن به الحكم على الأحاديث المسكوت عنها.

٢- عُنِيَ في الشرح بالناحية الفقهية للحديث، فبُيِّنَ ما ذكره الإمام الترمذي بعد نص الحديث من الأقوال والمذاهب الفقهية، وفُصِّلتْ المسائل الخلافية وأدلتها بنحو مشبع بجانب مناصرة المذهب الحنفي وتأييده دونما تعصب وتعسف، كما هو دأب مشايخنا في تدريس الحديث النبوي الشريف وبيان المذاهب الفقهية وأدلتها.

٣- أُعِيْرَ كبيرُ اهتمام للناحية الفنية الحديثية، حيث جاء الكلام - ضمن تطبيق المصطلحات في مواطنها - على الإسناد ورجاله، وبيان مراتبهم، ومراتب أحاديثهم التي رووها، بشكل يقنع طلبة الحديث النبوي الشريف.

٤- أجرِيَتْ المقارنةُ بين نصوص النسخ المطبوعة القديمة والحديثة المتداولة للجامع، وأشيرت في المعقوفين أو الهوامش إلى ما فيها من فرق أو نقص أو زيادة، حتى جاء المتن الذي أُثْبِتَ في الشرح محقَّقًا منقَّحًا.

استعراض سريع للشرح بكامله

كما أسلفت أن الشرح يحتوي على ٢٠ مجلدًا في نحو ١٢٠٠٠ صفحة بالقطع المتوسط، وقراءة هذا السفر العظيم وتقديم صورة عنه يتطلب جهدًا و وقتًا كافيًا، غيرأني أحاول أن أقدِّم إلى السادة القرَّاء

استعراضًا سريعًا لما يحتوي عليه الكتاب:

بدأ المؤلف المجلد الأول معنونًا بـ «مقدمة الشرح الكامل» ذكر فيها الغرض الأساسي لهذا الكتاب، ومنهجه للشرح، و مصادره الأساسية، ومنهج صاحب الإفادات: العلامة محمد أنور الكشميري في الإحالات، كما ذكر العوامل التي دفعته إلى تأليف هذا الكتاب، وما قام به من دراسة مصطلحات الإمام الترمذي مِن على منبر قسم التخصص في الحديث وعلومه بالجامعة، ثم وعد بالمقدمة المبسَّطة ومحتوياتها التي ستطلع القارئَ بعد صفحات.

ثم قام بإسداء الشكر والتقدير لأساتذته ومشايخه وإخوانه الذين قرأ عليهم، و استفاد منهم، والذين شجعوه على مواصلة السير، وأيَّدوه بتقريظاتهم القيمة، وهم فضيلة الشيخ نعمة الله الأعظمي أستاذ الحديث بالجامعة الإسلامية دارالعلوم ديوبند، وفضيلة الشيخ أرشد المدني رئيس هيئة التدريس بالجامعة ورئيس جمعية علماءالهند والعضو التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، وفضيلة الشيخ المفتي أبو القاسم النعماني رئيس الجامعة وشيخ الحديث بها، وفضيلة الشيخ محمد عاقل مدير جامعة مظاهر علوم بسهارنفور وشيخ الحديث بها، وفضيلة الشيخ المفتي محمد سلمان المنصور فوري أستاذ الحديث بدارالعلوم/ديوبند، الذي كان من أخص المقدِّرين لهذا الشرح ودائم التسآل عن إكماله.

كما وصل الشكر للإخوة الباحثين في قسم التخصص في الحديث وعلومه بالجامعة الذين ساعدوه في دراسة مصطلحات الترمذي وتطبيقاتها على الأحاديث، وشمِل بالشكر غيرهم ممن ساعده في هذه العمل من المتخرجين. و لم يفته بهذه المناسبة أن يشكر شريكة حياته التي أتاحت له الفرصة السانحة والتفرُّغ التام الذي يتطلبه مثلُ هذا العمل العلميّ الهام.

وأخيرا قام بإهداء الثواب لأبويه وأعمامه الذين لهم دور كبير في تكوينه وتثقيفه، ولا سيما فضيلة الشيخ زين العابدين الأعظمي رئيس قسم التخصص في الحديث بجامعة مظاهر علوم بسهارنفور سابقًا، والشيخ محمد عثمان المعروفي الأعظمي شيخ الحديث بدارالعلوم «بانسكندي» بولاية «آسام» سابقًا.

ثم ساق تقريظات كل من فضيلة الشيخ المفتي أبو القاسم النعماني/حفظه الله، وفضيلة الشيخ أرشد المدني/حفظه الله، و فضيلة الشيخ محمد عاقل/حفظه الله، وفضيلة الشيخ أنظر شاه الكشميري/رحمه الله، وفضيلة الشيخ نعمة الله الأعظمي/حفظه الله.

ثم ذكر المقدمة المبسطة الموعودة مُعَنْوَنةً بـ«مقدمة المؤلف»، وضمَّنه أربعة أبواب، الباب الأول في ترجمة الإمام الترمذي والتعريف بجامعه، أبان فيه عن مكانة الإمام الترمذي بين المحدثين، وما قاله العلماء فيه، كما سلط الضوء على قيمة

جامعـه العلميـة، ومكانتـه في الأوسـاط الحديثيـة بالإضـافة إلى الكـشف عـن اسـمه العلمـي الـذي لا يعرفه كثير من الناس، وهو «الجامع المختصر من الـسنن عـن رسـول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ومعرفـة الـصحيح والمعلـول، ومـا عليـه العمـل»، ثـم ركَّـز اهتمامه على أحد أجزاء اسمه العلمي وهو العمل، فأسهب وأطنب في حجية العمل المتوارث بأدلة من الكتاب والسنة والإجماع وأقوال العلماء.

أما الباب الثاني فهو يحتوي على شرح كتاب العلل الصغير للترمذي لابن رجب الحنبلي، وبيان مصطلحات الترمذي.

وأمـا البـاب الثالـث ففيـه توضـيح للمقيـاس المتبع في دراسة الأسانيد لأحاديث جامع الترمذي، وسبب اختياره إياه.

وأما الباب الرابع فهو في دراسة مصطلحات الترمذي مفردة ومركبة، ولها فصول، وأعقب كل فصل بجدول يوضح فيه الأحاديث التي حكم عليها الترمذي بالصحة أو الحسن أو الغرابة مفردًا أو مركبًا، كما يحتوي الفصل الحادي عشر على الأحاديث المسكوت عن الحكم عليها، ويليه جدول لهذه الأحاديث. وفنَّد في الفصل الأخير لهذا الباب ما رُميَ به الإمام الترمذي من التساهل في الحكم أو التعصب، وختم الباب بخلاصة دراسته.

المجلد	اسم الكتاب	رقم الحديث	عدد الصفحات
١	المقدمات والدراسات		٧٤٩
٢	الطهارة	١-١٤٨	٥٥٨
٣	الصلاة	١٤٩-٢٦٧	٥٦٠
٤	الصلاة	٢٦٨-٤٠٤	٥٥٩
٥	الصلاة، الوتر، الجمعة، العيدين، السفر	٤٠٥-٥٦٧	٥٦٨
٦	السفر، الزكاة، الصوم	٥٦٨-٧٥٦	٥٦٠
٧	الصوم، الحج	٧٥٧-٩١٩	٥٥٩
٨	الحج، الجنائز، النكاح	٩٢٠-١١٠٦	٥٧٦
٩	النكاح، الرضاع، الطلاق، اللعان، البيوع	١١٠٧-١٢٥٥	٥٦٥
١٠	البيوع، الأحكام، الديات، الحدود	١٢٥٦	٥٧٨
١١	الحدود، الصيد، الأضاحي النذور،الأيمان، السير، فضائل الجهاد	١٤٣٩-١٦٤٥	٥٩١
١٢	فضائل الجهاد، الجهاد، اللباس، الأطعمة، الأشربة	١٦٤٦-١٨٦٦	٥٨٣
١٣	الأشربة، البر والصلة، الطب، الفرائض، الوصايا، الولاء، الهبة	١٨٦٧-٢١٣٢	٥٧٦
١٤	القدر، الفتن، الرؤيا، الشهادات، الزهد	٢١٣٣-٢٣٣٦	٥٦٨
١٥	الزهد، صفة القيامة الرقائق والورع، صفة الجنة،صفة جهنم	٢٣٣٧-٢٦٠٥	٥٥٩
١٦	الإيمان، العلم، الاستيذان والآداب، الأدب	٢٦٠٦-٢٨٥٨	٥٥٨
١٧	الأمثال، فضائل القرآن، القراءات، تفسير القرآن	٢٨٥٩-٣١٠٤	٥٥٧
١٨	تفسير القرآن	٣١٠٥-٣٣٦٩	٦٠٠
١٩	الدعوات، المناقب	٣٣٧٠-٣٦٥٤	٦٧٢

٢٠	مناقب الصحابة	٣٦٥٥-٣٩٥٦	٦٥٦
		إجمالي عدد الأحاديث ٣٩٥٦	إجمالي عدد الصفحات ١١٧٥٣

ترجمة موجزة للمؤلف

هو عبد الله بن عمر بن بشير المعروفي، أستاذ الحديث النبوي الشريف بالجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند، والمشرف على قسم التخصص في الحديث وعلومه بها، ومن المتضلعين من العلوم الشرعية خاصة الحديث وعلومه، وأحد العلماء المعروفين في شبه القارة الهندية.

مولده ودراسته

وُلِد ببلدة «فوره معروف» من أعمال مديرية «مئو» التابعة لولاية «أترابراديش» بالهند، وتلقى مبادئ القراءة والكتابة في مدرسة إشاعة العلوم في مسقط رأسه «فوره معروف»، ثم أشار عليه عمه الشيخ زين العابدين الأعظمي أن يلتحق بمدرسة الإصلاح ببلدة «سرائى مير» التابعة لمديرية «أعظم جراه»، فالتحق بها، حيث درس أربع سنواتٍ، ثم قصد ديوبند حيث التحق بدارالعلوم/ديوبند، وتخرج منها عام ١٤٠٦هـ الموافق ١٩٨٦م، ثم التحق بقسم الإفتاء التابع لدارالعلوم عام ١٤٠٧هـ، وتخرج منه مفتيًا.

مشايخه في الحديث

قرأ صحيح البخاري جزءه الأول على الشيخ نصير أحمد خان البلندشهري، وجزءه الثاني على الشيخ عبد الحق الأعظمي، و صحيح مسلم جزءه الأول على الشيخ نعمة الله الأعظمي، وجزءه الثاني على الشيخ قمر الدين أحمد الغوركفوري، وجامع الترمذي جزءه الأول على الشيخ المفتي سعيد أحمد البالنفوري، وجزءه الثاني على الشيخ أرشد المدني، وشيئًا من الجزء الثاني على الشيخ معراج الحق الديوبندي، وسنن أبي داود على الشيخ محمد حسين البهاري، وسنن النسائي على الشيخ زبير أحمد الديوبندي، والموطا للإمام مالك على الشيخ محمد حسين البهاري، والموطا برواية الإمام محمد بن حسن الشيباني على الشيخ نعمة الله الأعظمي، وكتاب الشمائل للترمذي على الشيخ عبد الخالق المدراسي، وسنن ابن ماجه على الشيخ رئاست علي ظفر البجنوري، وشرح معاني الآثار للطحاوي على الشيخ المفتي سعيد أحمد البالنفوري، وصدرًا من حجة الله البالغة للإمام ولي الله الدهلوي على عمه الشيخ زين العابدين الأعظمي.

إجازته برواية الحديث

وقد أجازه الشيخ محمد يونس الجونفوري شيخ الحديث بجامعة مظاهر علوم سابقًا برسائله الثلاث: الفضل المبين في المسلسل من حديث النبي الأمين، والدر الثمين في مبشرات النبي الأمين، والنوادر من أحاديث سيد الأوائل والأواخر.

وأجازه الطبيب أحمد حسن خان الطونكي برواية كل ما سمعه من مشايخه وما أجازوا بروايته، ومن ذلك روايته عن الشيخ حيدر حسن الطونكي،

عن الشيخ ميان نذير حسين الدهلوي، عن الشاه إسحق الدهلوي. وهو أخصر طريق يصل إلى الشاه إسحق الدهلوي بواسطتين.

كما أجازه الشيخ المحدث عاشق إلهي البرني بكل ما قرأ على مشايخه وسمعه، وتفاصيله مكتوبة في كتابه: العناقيد الغالية.وأجازه كذلك عمه الشيخ زين العابدين المعروفي الأعظمي برسالة الأوائل لمحمد سعيد بن سنبل.

خدماته التدريسية

عمِل مدرسًا في مدرسة مطلع العلوم بمدينة «رامفور» بولاية أترابراديش عام ١٤٠٧هـ، ثم عُيِّنَ مدرسًا في الجامعة الإسلامية ريورهي تالاب بمدينة «بنارس» عام ١٤٠٨هـ، حيث عمل نحو ثماني سنوات، ثم تولى مهمة التدريس في قسم التخصص في الحديث التابع لجامعة مظاهر علوم بسهارنفور، وكان عمه الشيخ زين العابدين الأعظمي مشرفًا على القسم، فقام بالتدريس في القسم تحت إشراف عمه ورعايته نحو خمس سنوات.

وعام ١٤٢١هـ انتُدِبَ أستاذًا بقسم التخصص في الحديث وعلومه بدارالعلوم/ديوبند، حيث لايزال يقوم بمهام التدريس فيه بكفاءة وجدارة، بالإضافة إلى تدريس مشكاة المصابيح في قسم الفضيلة، ونظرًا إلى خدماته تمَّ ترفيعُه إلى المرتبة العليا عام١٤٤٠هـ.

التربية الإحسانية

اتصلت حباله بالشيخ عبد الجبار الأعظمي المتوفى عام ١٩٨٩م، فبايعه، وتلقى منه التربية الإحسانية، ثم لما توفي الشيخ الأعظمي، بايع عمه الشيخ زين العابدين الأعظمي، ثم بايع الشيخ محمد طلحة الكاندهلوي (نجل المحدث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي) وتخرج عليه في التزكية والإحسان، وأجازه بالبيعة والخلافة.

وهو دائم الاتصال بالمشايخ الصالحين، كثير الاختلاف إليهم، ليستفيد منهم، مثل: الشيخ محمود البتيروي (أحد أصحاب شيخ الإسلام حسين أحمد المدني)، والشيخ عبد الستار البورياوي (صاحب الشيخ مسيح الله خان الجلال آبادي)، وأجازه كل واحد منهما بالبيعة والخلافة.

مؤلفاته

لم يزل يشتغل بالحديث وعلومه منذ أكثر من ٣٠ عامًا، وجعله شعاره ودثاره، وطال مراسه به فعرف وهاده وأنجاده، وسبر أغواره، حتى جاءت مؤلفاته تحمل في طياتها معلوماتٍ غزيرةً، وفوائدَ نافعةً، وتجاربَ قيمةً تنفع القراء وتُقنعهم. وله:

١- العرف الذكي شرح جامع الترمذي في ٢٠ مجلدًا.

٢- تذهيب الدرّ المنضَّد في شرح الأدب المفرد ٤ مجلدات.

٣- مقدمة الدرّ المنضَّد.

٤- حديث اور فهم حديث (المدخل إلى دراسة الحديث) بالأردية.

٥- فضائل أعمال بر اعتراضات ايك اصولي جائزه (دراسة تأصيلية للاعتراضات على أحاديث فضائل الأعمال للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي) بالأردية.

٦- غير مقلديت: اسباب وتدارك (اللامذهبية عواملها ومكافحتها) بالأردية.

٧- جواب الرسالة (رسالة الشيخ محمد عوامة بشأن المنهج المشروح للحكم على الأحاديث في مقدمة الدرّ المنضَّد) في نحو ١٥٠ صفحة.

٨- العرف الفياح في شرح مقدمة ابن الصلاح بالأردية.

وقد أنجزت تحت إشرافه البحوث التالية من قسم التخصص في الحديث وعلومه.

٩- الحديث الحسن في جامع الترمذي دراسة وتطبيق سنة ١٤٢٥هـ.

١٠- حسن غريب في جامع الترمذي دراسة وتطبيق سنة ١٤٢٧هـ.

١١- حسن صحيح في جامع الترمذي دراسة وتطبيق سنة ١٤٣٠هـ.

١٢- حسن غريب في جامع الترمذي دراسة وتطبيق سنة ١٤٣٦هـ.

طباعه و شمائله

هو ربعة من القوم، نحيف الجسم،حسن الوجه، هشٌّ بشٌّ، موفور النشاط، لا يعتريه كلل ولاسآمة، جلد صبور، طويل النَفَس في ممارسة الأعمال، كثير الثقة بنفسه، كريم الخلق، حسن المعاشرة، جمُّ التواضع، قليل التكلف، محبوب لدى الناس.

كثَّر الله أمثاله، وأضفى عليه ظلال الصحة والسعادة، ووفقه لإنجاز المزيد مما ينفع العلم وأهله.

خاتمة

جملة القول أن الكتاب إنجاز حديثيٌّ قيِّم في أصح معنى الكلمة، فيه- بجانب توفيةِ المباحث الحديثية والفقهية حقَّ الشرح والتفصيل بنحو مُشبع ومُقنع- حلّ حاسم للمعضِلات الحديثية بجامع الترمذي التي حار في معالجتها العلماء والدارسون مدى القرون وتعبوا؛ فهو من هذه الناحية عملٌ منقطع النظير.

كما أنه إضافة قَيِّمة إلى المكتبة الإسلامية العامرة، وهدية غالية لإخواننا العرب وغيرهم من طلبة الحديث النبوي الشريف والعاملين في حقل دراساته من أحد أبناء الجامعة الإسلامية العريقة: دارالعلوم/ديوبند التي سَبَقَ أن أتْحَفَهم مشايخُها وأبناؤُها بالموسوعات الحديثية، مثل: فيض الباري على صحيح البخاري، وفتح الملهم بشرح صحيح مسلم، وبذل المجهود شرح سنن أبي داود، وأوجز المسالك إلى موطا الإمام مالك، وما إليها.

تقبَّل الله جهد المؤلف وشكر سعيه، وأضفى على كتابه مسحة القبول، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

***

بقية «إشراقة» المنشورة على ص ٥٦

والانتقاص من أهميته ونفعه؛ لا لأنه يحمل في نفسه عيبًا أو نقيصةً أو ضررًا عاجلًا أو آجلًا؛ إنما لأجل أنه لايرتقي إلى المبادئ والمستويات التي وضعها الغرب والشرق، وإن استعصى فهمها على قوانين العقل الواعي والمنطق السليم، وكثيرًا ما تتلبس بمفعول الغرائز و العواطف، وتعكس الثأر والحقد والضغينة، وتصرخ من بين طياتها النوازع والأهواء الملتوية.

وتجد حَمَلَة هذه العقلية من المسلمين إذا عرض على أحدهم أمر من أمور الدين أو رأي من آرائه في قضية عادية أو ساخنة، بدأ يثرثر ويهذر فيه بما يخطر بباله، وما يمليه عقله ورأيه، دون اللجوء إلى أدنى تفكير وتدبر وتأمل فيه، وهو متكئ على أريكته، كأنه في حديث فكاهي يعقب الغداء أو العشاء، للتسرية عن النفس، وتمضية الأوقات، ومدافعة الزمان، ثم توصل إلى رأي حاسم في الأمر بصورة عابرة، وأمضاه إلى غيره، دون أن يكون له باعث رهبة في أعماق القلب، أو وازع من الدين، أو زاجر من سلطان:

لا ترجع الأنفس عن غيها
ما لم يكن منها لها زاجر

اللّٰهم إلا علماء الدين المخلصين، قد تخلصوا منهم رغم اتهامهم بالرجعية، والتخلف، وعدم مسايرتهم لركب التطور، ومناوأتهم لروح العصر: عصر الازدهار، وعصر العلم والتكنولوجيا.

فأصحاب هذه العقلية يتحدثون في أمور الدين بكل بساطة وبكل رعونة وتحلل خلقي، فيرجمون بالغيب فيه، وأما إذا عرض عليهم أمر من أمور الدنيا أخذوا كل حذر في الإدلاء بآرائهم فيه، و حسبوا ألف حساب لعاقبته ولما قد يترتب على إطلاق ما يملكون من توجيه و إرشاد، و جعلوا نصب عينهم بأن الكلمة ملك لصاحبها قبل أن تجري على لسانه للناس، فإذا خرجت من فيه ملكته ولايبقى له سلطان عليها في تأويل أو تفسير. وذلك لأنهم يخافون أن يذهب ريحهم لزلة لسان أو كبوة قلم، فلايقوم لهم قائمة في المجتمع الذي يزعمونه مجتمعًا علميًّا ثقافيًا حضاريًا.

فهؤلاء بدلًا من أن يتنافسوا في مراتب التقوى والصلاح والورع والعلم أصبحوا يتسارعون إلى الشبهات، ويتسابقون أيهم أعظم مكنةً وقدرةً على الرعي حول الحمى دون أن يقتحمه. فأنى لهؤلاء أن يرتشفوا من رحيق جمال الدين ونصاعته، ويتفيؤوا ظلال جنانه ويقتحموا مخاض صدقه ورصانته وواقعيته؟

آمن القلب، ولما يؤمن العقل

إن المسلمين اليوم استوردوا فيما استوردوا من الغرب في مختلف المجالات الحياتية التعليمية والإدارية والاقتصادية والحضارية العقلانيةَ وقياسَ كل شيء بميزان العقل، العقل الغربي، لا العقل الحر المجرد الذي يزن الأمور بروَّية واتزان وحكمة ثم يصدر حكمه فيها دون خضوع لإملاءات الآخرين، و خاصةً الغرب منهم. وأصبحت هذه العقلانية هي المحك الأفضل والأبعد عن الزيغ والضلال والحيف و الجور في الأحكام كلها دون استثناء أو تعليق. وهذه العقلانية المستوردة تتصف عندهم بالقداسة و الاحترام المتناهي فلايتسرب إليها أدنى ريب في مصداقيتها وحقانيتها، وحيادها، وبراءتها من الذم وتوجه أصابع الاتهام إليها.

فتجد بعض بني جلدتنا يستسيغ ويستهوي ويفرض على الناس نظامًا اقتصاديًّا أو تربويًّا و تعليميًّا أو حضاريًّا غارقًا من أخمص قدميه إلى قمة رأسه في حضيض من الضياع والهلاك، داعيًا إلى الويلات والدركات، جالبًا للبلاء والرزايا؛ لكنه يفضله ويستحسنه ويهيم به أشد من هيمان العرب بربا نجد، فيفقد حينئذ عقله هو، ولايبالي بشيء من الاعتبارات الدينية أو الاجتماعية؛ فهو مغلوب على أمره، مسلوب الإرادة، كَلٌّ على مولاه، ولايقدر على شيء، وما كان له أن يأتي بشيء يزرع تضاريس و عواثير وأشواكًا في سبيل هذا الهيام والوله الذي مزقه كل ممزقٍ، ودمره تدميرًا؛ لمجرد أنه نظام مستورد من الغرب ومن الشرق، فهو فوق النقد والاعتراض، وإن لم يجد فيه بارقة أمل أو بصيصًا من نور الخير و الصلاح والفلاح والهدى والرشاد لنفسه أو لمجتمعه الذي يعيش فيه ليله ونهاره.

والأمر الآخر الذي تلقاه المسلمون وخاصةً الفئة المثقفة منهم الثقافة العصرية الحديثة هو الطعن في كل شيء، مهما كان ساميًا وذا قيمة راقية،ونفع عظيم، وعائدة قيمة، وفائدة جليلة. وهذا النقد و الطعن بدوره ينطلق عن المبادئ والأسس التي وضعها وشرعها الغرب.فكل نظام ومفهوم لاينسجم مع الأنظمة والمفاهيم الغربية الإلحادية يجب عندهم النيل منه، والازدراء به، وتقليل قيمته،

(البقية على ص ٥٥)

أبو عائض القاسمي المباركفوري